القسم السابع

نوادر متفرقة فى الكرم

الهادى وإسحاق الموصلى

ذكر إسحاق الموصلى أن الهادى قال لهُ أنشدنى وأطربنى بإنشادك ما شئت فأنشدتهُ:

فيا حبها زدنى جوًى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس لهُ صبرُ

فاستطابهُ وأمر أن أدخل بيت المال وآخذ منهُ ما أردت فأخذت منهُ سبع بدرٍ وانصرفت.

* * *

جعفر بن أبى طالب وأبو هريرة

قال أبو هريرة: ما وددت أمًا تلدنى غير أم جعفر بن أبى طالب، تبعتهُ يومًا وأنا جائعٌ فلما بلغ الباب التفت فرآنى فقال لى: ادخل فدخلت ففكر حينًا فما وجد فى بيتهِ شيئًا إلاَّ وعاء فيهِ قليل من السمن فأنزلهُ من رف لهم ففتحهُ بين أيدينا فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن وهو ينشد ويقول:

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلاَّ بما تجدُ

* * *

سوار القاضى وعبد الله بن طاهر

دخل سوار القاضى على عبد الله بن طاهر ـ صاحب خراسان ـ فقال: أصلح الله الأمير وأنشد:

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم
طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا
مرزؤون بها ليل إذا قصدوا
محسدون على ما كان من نعمٍ
لا ينزع الله منهم ما لهُ حسدوا

* * *

كعب بن مامة الإيادى

أشهر ما جاد بهِ أنهُ كان يومًا مع رفيقهِ السعدى وقد اشتد الظمأ فآثرهُ على نفسهِ وأعطاه ما عنده من الماء فنجا السعدى ومات كعب ضحية كرمهِ ومروءتهِ وفيهِ يقول حبيب الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجودِ

* * *

ولخبيب أيضًا يمدح كعبًا وحاتمًا الطائى

كعبٌ وحاتمٌ اللذان تقسما
خطط العلا من طارفٍ وتليدِ
هذا الذى خلف السحاب ومات ذا
فى الجهد ميتة خضرم صنديدِ
إلاَّ يكن فيها الشهيد فقومهُ
لا يسمحون بهِ بألف شهيدِ

* * *

عبد الله بن العباس والحسين بن على

حبس معاوية عن الحسين بن على صلاته حتى ضاقت عليه حالهُ، فقيل لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله فإنهُ قدم بنحو من ألف ألف درهم، فقال الحسين وأين تقع ألف ألف من عبيد الله فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت وأسخى من البحر إذا ذخر، ثم وجه إليهِ مع رسولهِ بكتاب ذكر فيهِ حبس معاوية عنهُ صلاته وضيق حاله وأنهُ يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبيد الله كتابهُ وكان رقيق الفؤاد لين العطف انهملت عيناه، ثم قال ويلك يا معاوية ما اجترحت يديك من الإثم حين أصبحت لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال إلى قهرمانهِ: احمل إلى الحسين نصف ما أملكهُ من فضة وذهب وثياب ومواشٍ وأخبره أنى شاطرتهُ مالى فإن أقنعهُ ذلك وإلاَّ فارجع واحمل إليه الشطر الآخر، فقال له القيّم فهذه المؤن التى عليك من أين تقوم بها، قال إذا بلغنا دللتك على أمرٍ يقيم حالك، فلما أتى الرسول برسالتهِ إلى الحسين قال إنا لله حملت والله على ابن عمى وما حسبتهُ يجود علينا بهذا كلهِ وأخذ المال جميعهُ.

* * *

عبيد الله بن العباس وأحد الأنصار

جاءَه رجل من الأنصار فقال: يا ابن عم رسول الله وُلد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميتهُ باسمك تبركًا منى به وإن أمهُ ماتت، فقال عبيد الله بارك الله لك فى الهبة وأجزا، لك الأجر على المصيبة ثم دعا بوكيلهِ فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جاريةً تحضنهُ وادفع إليهِ مائتى دينار للنفقة على تربيتهِ ثم قال للأنصارى: عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبسٌ وفى المال قلة، قال الأنصارى لو سبقت حاتمًا بيومٍ واحدٍ ما ذكرتهُ العرب أبدًا ولكنهُ سبقك فصرت لهُ تاليًا.

* * *

سعيد بن العاص ومعاوية ومروان

كان معاوية بديلاً بينهُ وبين مروان بن الحكم فى ولاية المدينة فكان مروان يعارضهُ فلما دخل معاوية قال لهُ: كيف تركت أبا عبد الملك أى مروان، قال تركته منفذاً لأمرك مصلحًا لعملك، قال معاوية إنهُ كصاحب الخبزة كفى إنضاجها فأكلها، قال كلاَّ يا أمير المؤمنين إنهُ من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا ولا يحصدون إلا ما زرعوا، قال فما الذى باعد بينك وبينهُ، قال خفتهُ على شرفى وخافنى على مثله، قال فأى شىء كان لهُ عندك، قال أسوؤه حاضرًا وأسره غائبًا، قال يا أبا عواد تركتنا فى هذه الحروب، قال حملت الثقل وكفيت الحزم، قال فما أبطأك، قال غناؤك أبطأنى عنك وكنت قريبًا لو دعوت لأجبناك ولو أمرت لأطعناك، قال ذلك ظننا بك، فأقبل معاوية على أهل الشام فقال: يا أهل الشام هؤلاء قومى وهذا كلامهم، ثم قال أخبرنى عن مالك فقد نبئت أنك تتحرى فيه، قال يا أمير المؤمنين لنا مال يخرج لنا منهُ فضل فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته وإن كان كثيراً فكذلك غير أنا لا ندخر منه شيئًا عن معسر ولا طالبٍ ولا محتاج ولا نأثر عليه شيئًا من المآكل اللذيذة والمناظر البهيجة قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال: من السنة نصفها، قال فما تصنع فى باقيها، قال نجد من يسلفنا ويسارع فى معاملتنا، قال ما أحد أحوج أن يصلح من شأنه منك، قال إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين ولو زدت فى مالى مثله ما كنت إلا بمثل هذا الحال، فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم وقال: اشتر بها ضيعة تعينك على مروءتك، فقال الحمد لله الذى لهُ حمدًا وذكرًا باقيًا أطعم بها وأفك بها العانى وأواسى بها الصديق وأصلح بها حال الجار، فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم، فقال معاوية ما فضيلة بعد الإيمان بالله هى أرفع فى الذكر ولا أنبه فى الشرف من الجود وحسبك بالله تعالى جعل الجود آخر صفاته.

* * *

عبيد الله بن معمر وأحد أهالى البصرة

من جوده أن رجلاً أتاه من أهل البصرة مع جارية لهُ نفيسة قد استأدبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت فى جميع الصفات الحميدة ثم إن الدهر قعد بسيدها ومال عليهِ وقدم عبيد الله بن معمر البصرة من بعض وجوههِ فقالت لسيدها: إنى أريد أن أذكر لك شيئًا وأخشى أن يكون فيهِ بعض الجفاءِ غير أنه يسهل ذلك علىّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك وما أخافه عليك من الاحتياج وضيق الحال وهذا عبيد الله بن معمر قدم وقد علمت شرفه وقدرته وسعة كفهِ وجود نفسهِ فلو أذنت لِى فأصلحت من شأنى ثم تقدمت بى إليه وعرضتنى عليهِ هدية رجوت أن يأتيك من مكافأتهِ ما يقلك الله بهِ وينهضك إن شاءَ الله (قال) فبكى وجداً عليها وجزعًا لفراقها ثم قال لها لولا ما نطقت بهذا ما ابتدأتك بهِ أبداً، ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدى عبيد الله فقال: أعزك الله هذه جارية ربيتها ورضيت بها لك فاقبلها منى هدية، فقال مثلى لا يستهدى لمثلك فهل لك فى بيعها فأجزل لك الثمن عليها حتى ترضى، قال الذى تراه، قال يقنعك منى عشر بدر فى كل بدرة عشرة آلاف درهم، قال والله يا سيدى ما امتد أملى إلى عشر ما ذكرت ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور، فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدى الرجل وقبضه وقال للجارية: ادخلى الحجاب، فقال سيدها أعزك الله لو أذنت لى فى وداعها قال: نعم فوقفت وقام وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوح بحزنٍ من فراقك موجعٍ
أقاسى بهِ ليلاً يطيل تفكرى
ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن
يفرقنا شىءٌ سوى الموتِ فاعذرى
عليك سلام لا زيارة بيننا
ولا وصل إلا أن يشاءَ ابنُ معمر

قال عبيد الله بن معمر: قد شئت ذلك فخذ جاريتك وبارك الله لك فى المال، فذهب بجاريتهِ ومالهِ فعاد غنيًا

* * *

يزيد بن المهلب وأحد بنى ضبة

قدم على يزيد بن المهلب قومٌ من قضاعة من بنى ضبة فقال رجلٌ منهم:

والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلبٌ إليك من الذى نتطلبُ
ولقد ضربنا فى البلاد لم نجد أحدًا سواك إلى المكارم ينسبُ
فاصبر لعادتنا التى عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهبُ

فأمر لهُ بألف دينار فلما كان فى العام المقبل وفد عليهِ فقال:

ما لى أرى أبوابهم مهجورة وكأنّ بابك مجمع الأسواقِ
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيديك فاجتمعوا من الآفاق
إنى رأيتك للمكارم عاشقًا والمكرمات قليلة العشاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

* * *

ابن طوق وأحد الشعراء

عرض رجلٌ لابن طوق وقد خرج فى طلب النزهة فناوله رقعة فيها جميع حاجتهِ ومصدرة بهذا البيت:

جعلتك دنياى فإن أنت جدت لى بخير وإلا فالسلام على الدنيا

فقال: والله لأصدقن ظنك فأعطاه حتى أغناه.

* * *

عبد الله بن طاهر ودعبل الشاعر

عرض دعبل بن على الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراسانى وهو راكبٌ فى حراقة له فى دجلة فأشار إليهِ برقعة فأمر بأخذها فإذا فيها:

عجبت لحراقة بن الحسيـ ـن كيف تسير ولا تغرقُ
ومجران من تحتها واحدٌ وآخر من فوقها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها إذا مسها كيف لا تورقُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها هذه الأبيات:

طلعت قناتك بالسعادة فوقها معقودة بلواء ملك مقبل
تهتز فوق طريدتين كأنما تهنو بناقلها جناحًا أجدل
ربح البخيل على احتيال عرضهُ بندى يديك ووجهك المتهلل
لو كان يعلم أن نيلك عاجل ما فاض منه جدول فى جدول

فأمر له بخمسة آلاف.

* * *

هشام ونصيب بن رياح

دخل نصيب بن رياح على هشام فأنشده:

إذا استبق الناس العلا سبقتهم يمينك عفوًا ثم حلت شمالك

فقال هشام: بلغت غاية المدح فسلنى، فقال يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة، قال لا بد أن تفعل، قال لى ابنة نفضت عليها من سوادى فكسدها فلو أسعفها أمير المؤمنين بشىء يجعله لها، قال فأقطعها أرضًا، وأمر لها بحلىٍّ وكسوةٍ فنفقت السوداء.

* * *

ليلى الأخيلية والحجاج

دخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته:

إذا ورد الحجاج أرضًا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هزَّ القناة سقاها

فقال لها: لا تقولى غلام ولكن قولى همام ثم قال: أى النساء أحب

إليك لأنزلك عندها، قالت: ومن نساؤك أيها الأمير، قال: أم الجلاس ابنة سعيد بن العاص الأموية وهند ابنة إسماعيل بن خارجة الفزارية وهند ابنة المهلب بن أبى جفرة العتكية، قالت الحيثية أحب إلىَّ، فلما كان من الغد دخلت عليه، قال يا غلام أعطها خمسمائة، قالت: أيها الأمير أحسبها إبلاً، قال قائلٌ: إنما أمر لك بشاءٍ، قالت الأمير أكرم من ذلك، قال: اجعلوها إبلاً ولا تخيبوا ظنها بنا.

* * *

الحسن بن سهل وعلى بن جبلة

قال الحسن بن رجاء الكاتب: قدم علينا على بن جبلة إلى عسكر الحسن ابن سهل والمأمون هناك عند خديجة ابنة الحسن بن سهل ونحن إذ ذاك نجرى على نيف وسبعين ألف ملاح ونحن فى غاية من الانهماك فنزل بى فقلت لهُ: قد كثر شغل الأمير، فقال ألا تخبرنهُ بقدومى، قلت أجل، فدخلت على الحسن بن سهل فى وقت ظهورهِ فأعلمتهُ مكانهُ قال: ألا ترى ما نحن فيه، قلت لست بمشغولٍ عن الأمر، فقال يعطى عشرة آلاف إلى أن نتفرغ لهُ، فأعلمت على بن جبلة فقال لى كلمة لهُ:

أعطيتنى يا ولىَّ الحق مبتدءا عطية كافأت حمدى ولم ترنى
ما شمت برقك حتى نلت ريقهُ كأنما كنت بالجدوى تبادرنى

* * *

المعتصم وأبو تمام

دخل أبو تمام الطائى على المعتصم بعد فتوحهِ عمورية والفوز على محاربيه فامتدحهُ بقصيدة بليغة أولها:

السيف أصــدقُ أنباءً مـن الكتب
فى حدِّهِ الحدُّ بين الجـد واللعبِ
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى
متونهـنَّ جــلاءُ الشـكّ والريـبِ

والسلمُ فى شهبِ الأرمـــاح لامعـــةٌ
بين الخميسين لا فى السبعـــة الشهبِ

وهى قصيدة طويلة عددها ثلاثة وسبعون بيتًا فأعطاهُ جائزة عليها ثلاثة وسبعين ألف دينار على كل بيتٍ ألف دينار.

* * *

امتداح أبى البخترى على كرمه

كان وهب بن منبه أبو البخترى كثير العطاء أليف الندى وفيهِ قال الشاعر:

فهلاً فعلت وقاك المليك فينا فعال أبى البختـرى
تتبع إخـوانهُ فى البـلاد فأغنى المقلَّ على المكثر

* * *

كثيّر وعمر بن عبد العزيز

دخل كثيّر على عمر بن عبد العزيز فاستأذن فى الإنشاد، فقال قل ولا تقل إلاَّ حقًا فقال:

وَليتَ فلـم تشتـم عليًا ولم تخـف
بريًا ولم تقبـل إشـارة مجـرمِ
وصـدقت بالفعلِ المقال مع الذى
أتيـت فأمسى راضيًا كل مسلـمِ
وقـد لبست لبس الملـوك ثيابها
ولاحت لك الدنيا بوجـــه ومعصمِ
وتومـضُ أحيـانًا بعيـنٍ مريضـــةٍ
وتبسم عن مثـل الجمـان المنظمِ
فأعرضـت عنهـا مشمئزًا كأنمـا
سقتـك شرابًا من سمام وعلقمِ
وقـد كنت فى أجبالها فى ممنعٍ
وفى بحرهـا مـن مزبـد الموجِ مفعمِ

فلما أتاك الله غصبًا ولم يكن
لطالب دنيا بعدها من تكلمِ
تركت الذى يغنى وإن كان مونقًا
وأكثرت ما يبقى برأيٍ مصممِ
فما لك همٌّ فى الفؤاد مورقٌ
بلغت بهِ أعلى البناءِ المقدمِ
فما بين شرق الأرض والغرب لم يكن
منادٍ ينادى من فصيحٍ وأعجمِ
يقول أمير المؤمنين ظلمتنى
بأخذٍ لدينا أو بأخذ لدرهمِ
ولا بسط كفٌّ بامرئ غير مجرم
ولا السفك منهُ ظالمًا ملء محجم
فاربح بها من صفقة لمبايعٍ
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

فقال لهُ: يا كثير إنك تسئل عما قلتهُ، ثم أجازهُ بأثمن العطايا.

* * *

مروان الشاعر والمتوكل

أمر المتوكل لمروان بن أبى الحبوب الشاعر بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ثوبًا ورواحل كثيرة فقال أبياتًا فى شكره فلما بلغ قولهُ:

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى وأمر لهُ بضياعٍ تقوَّم بألف ألف.

* * *

يزيد بن المهلب والحلاق

حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقًا يحلق رأسهُ فجاؤوه بحلاق فحلق رأسهُ فأمر لهُ بخمسة آلاف درهم، فدهش الحلاق وقال: آخذ هذه الخمسة آلاف

وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنى قد استغنيت، فقال أعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال امرأتى طالق إن حلقت رأس أحد بعدك، وصادف أن الحجاج أمر بسجن يزيد على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له وهو فى السجن، فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب: استأذن لى عليه. فقال إنهُ فى مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعًا لما هو فيه ولم آت ممتدحًا فأذن لهُ فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما قطرت بالشوق بعدك قطرةٌ ... ولا اخضرَّ بالمردين بعدك عودُ
وما لسرورٍ بعد عزك بهجة ... وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

فقال يزيد للحاجب ادفع إليه المائة ألف درهم التى جمعت لنا ودع الحجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاءُ، فقال الحاجب للفرزدق هذا الذى خشيتهُ حين منعتك من الدخول عليه، ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف.

* * *

يزيد بن المهلب والعجوز

مر يزيد بن المهلب بعد خروجه من السجن بعجوز أعرابية فذبحت لهُ عنزًا فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار، قال: ادفعها إليها، فقال هذه يرضيها اليسير وهى لا تعرفك، قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلاَّ بالكثير وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى.

* * *

أبو جعفر وأزهر الشاعر

وفد أزهر الشاعر على أبى جعفر فقال لهُ: ما حاجتك، قال جئتك طالبًا، فأمر لهُ باثنى عشر ألف درهم وقال: لا تأتنا بعد طالبًا، فأخذها وانصرف. ولما كان بعد سنة أتاه، فقال لهُ أبو جعفر: ما حاجتك يا أزهر، أن جئت مسلمًا فقال لا والله بل جئت طالبًا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفًا فلا تأتنا

طالبًا ولا مسلمًا، فأخذها ومضى ولما كان بعد سنة أتاه فقال: ما حاجتك يا أزهر قال: أتيت عائدًا فقال لا والله بل جئت طالبًا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفًا فاذهب ولا تأتنا بعد طالبًا ولا مسلمًا ولا عائدًا، فأخذها وانصرف، فلما مضت السنة أقبل، فقال لهُ ما حاجتك يا أزهر، قال يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو بهِ جئت لأكتبهُ فضحك أبو جعفر وقال: الدعاء الذى تطلبهُ غير مستجاب فإنى دعوت الله بهِ أن لا أراك فلم يستجب لى وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفًا. وتعال إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك.

* * *

السائل وعبيد الله

من جود عبيد الله بن عباس أنهُ أتاه سائل وهو لا يعرفهُ فقال لهُ: صدّق فإنى نبئت أن عبيد الله بن عباسٍ أعطى سائلاً ألف درهم فاعتذر إليهِ، فقال لهُ وأين أنا من عبيد الله، قال أين أنت منهُ فى الحسب أم فى كثرة المال، قال فيهما، قال أما الحسب فى الرجل فمروءتهُ وفعلهُ وإذا شئت فعلت وكنت حسيبًا، فأعطاه ألفى درهم واعتذر إليهِ من ضيق الحال، فقال لهُ السائل: إن لم تكن عبيد الله بن عباس فأنت خيرٌ منهُ، وإن كنت هو فأنت اليومَ خيرٌ منك أمس، فأعطاه ألفًا أخرى، فقال السائل: هذه هزة كريم حسيب، والله لقد جذبت قلبى بكريم الخصال التى قلما توجد فى سواك من الرجال.

* * *

قال أحمد بن مطير: أنشدت عبد الله بن طاهرٍ أبياتًا كنت مدحت فيها بعض الولاة وهى:

لهُ يوم بؤسٍ فيهِ للناس أبؤسٌ
ويوم نعيم فيهِ للناس أنعمُ
فيقطر يوم الجودِ من كفهِ الندى
ويقطر يوم البؤس من كفهِ الدمُ

فلو أن يـوم البؤس لم يثـن كفـــهُ
عن الناس لم يصبح على الأرض مجرمُ
ولو أن يوم الجـــــود فرغ كفـــــهُ
لبذل الندى ما كان بالأرض معــدمُ

فقال لى عبد الله: كم أعطاك؟ قلت: خمسة آلاف، قال: فقبلتها، قلت: نعم، قال لى: أخطأت؛ فما ثمن هذه إلا مائة ألف.

* * *

العتبى وعمهُ

قال العتبى: سمعت عمى ينشد لأبى عباس الزبيرى:

وكل خليفـــة وولى عهـــدٍ لكم يا آل مروان الفـــداءُ
إمارتكم شفاء حيث كـانتْ وبعض إمــارة الأقــوام داءُ
فأنتم تحسنـــــون إذا ملكتـم وبعض القوم إن ملكوا أساؤُوا
هم أرضٌ لأرجـلكم وأنتـم لأيديكـم وأرجلهـم سمـــاءُ

فقلت لهُ: كم أعطى عليها؟ قال: عشرين ألفًا.

* * *

خزيمة وعكرمة الفياض

كان فى أيام خلافة سليمان بن عبد الملك رجل يقال لهُ خزيمة بن بشر من بنى أسد مشهور بالمروءَة والكرم والمواساة. وكانت نعمتهُ وافرة، فلم يزل على تلك الحالة من الكرم حتى احتاج إلى إخوانهِ الذين كان يُؤاسيهم بتفضل عليهم، فآسوهُ حينًا ثم ملُّوه، فلما لاح منهم ذلك أتى امرأتهُ وقال لها: يا ابنة العم رأيت من إخوانى غير ما عهدتهُ فيهم وقد عزمت على لزوم بيتى إلى أن يأتينى الموت، ثم إنهُ أغلق بابهُ وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد جميعهُ وبقى حائرًا فى أمره، وكان يومئذ عكرمة الفياض واليًا على الجزيرة. فبينما هو جالس فى ديوانهِ وعنده جماعة من أهل البلد من معارفهِ إذ جرى

ذكر خزيمة بن بشر، فسألهم عكرمة عن حاله فقالوا لهُ: إنهُ فى أشقى حال من الفقر وقد أغلق بابهُ ولزم بيتهُ، فقال عكرمة الفياض: أفما وجد خزيمة ابن بشر مؤاسيًا أو مكافيًا، فقالوا لهُ لا، فأمسك عكرمة عن ذلك، وكان بمنزلة عظيمة من الكرم وسمى الفياض لزيادة كرمه وجوده، فانتظر إلى الليل وعمد إلى أربعة آلاف دينار جعلها فى كيس ثم ركب دابتهُ وخرج سرًا من عند أهله لا يصحبهُ إلاَّ غلامٌ واحد يحمل المال فلم يزل سائرًا حتى وصل إلى باب خزيمة فنزل عن دابته إلى ناحية وأمسكها لغلامه وأخذ منهُ الكيس وأتى به وحدهُ إلى الباب وقرعهُ، فخرج خزيمة فقال لهُ عكرمة وقد أنكر صوتهُ: خذ هذا أصلح به شأنك، فتناولهُ خزيمة فرآه ثقيلاً فوضعهُ وقبض على ذيل عكرمة وقال له: أخبرنى من أنت جعلت فداك، فقال لهُ عكرمة: ما جئتك فى مثل هذا الوقت وأريد أن تعرفنى، فقال لهُ خزيمة: والله لا أقبلهُ ما لم تخبرنى من أنت، فقال لهُ عكرمة: أنا جابر عثرات الكرام، فقال خزيمة: زدنى إيضاحًا، فقال لهُ عكرمة: لا والله، وانصرف ، فدخل خزيمة بالكيس إلى امرأته وقال لها: أبشرى فقد أتى الله بالفرج فقومى أسرجى، فقالت: لا سبيل إلى السراج لأنه ليس لنا زيت، فبات خزيمة يلمس الكيس فيجد خشونة الدنانير، ولما رجع عكرمة إلى منزله سألتهُ امرأتهُ فيمَ خرج بعد هدأة من الليل منفردًا، فأجابها: ما كنت لأخرج فى وقت كذا وأريد أن يعلم أحد بما خرجت إليه إلاَّ الله فقط، فقالت لهُ: لا بد لى أن أعلم ذلك وصاحت وناحت وألحت عليه بالطلب، فلما رأى أنهُ ليس لهُ بدٌّ قال لها: أخبرك بالأمر فاكتميه إذًا، قالت لهُ: قل ولا تبال بذلك، فأخبرها بالقصة على وجهها، أما ما كان من خزيمة فإنهُ لما أصبح صالح غرماءهُ وأصلح شأنهُ وتجهز للسفر يريد الخليفة سليمان بن عبد الملك، فدخل الحاجب وأخبر سليمان بوصول خزيمة بن بشر، وكان سليمان يعرفهُ جيدًا بالمروءة والكرم فأذن لهُ، فلما دخل خزيمة وسلم عليه بالخلافة قال لهُ سليمان: يا خزيمة ما أبطأك عنا، قال: سوء الحال يا أمير المؤمنين، قال: فما منعك النهضة إلينا، قال خزيمة: ضعفى يا أمير المؤمنين وقلة ما بيدى، قال: فمن أنهضك الآن،

قال خزيمة لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلاَّ والباب يطرق فخرجت فرأيت شخصًا وكان منهُ كيت وكيت، وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها، فقال لهُ: أما عرفتهُ، فقال خزيمة، ما سمعت منهُ يا أمير المؤمنين إلاَّ حين سألتهُ عن اسمه قال: أنا جابر عثرات الكرام، فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال، لو عرفناه لكافأناه على مروءته، ثم قال: علىَّ بالكاتب فحضر إليه، فكتب لخزيمة الولاية على الجزيرة وجميع عمل عكرمة وأجزل لهُ العطاء وأحسن ضيافتهُ، وأمره بالتوجه من وقته إلى الولاية فقبل الأرض خزيمة وتوجه من ساعته إلى الجزيرة، فلما قرب منها خرج عكرمة وكان قد بلغهُ عزلهُ وأقبل لملاقاة خزيمة مع جميع أعيان البلد، وسلموا عليه وساروا جميعًا إلى أن دخلوا به البلد، فنزل خزيمة فى دار الإمارة وأمر أن يؤْخذ عكرمة ويحاسب، فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبهُ جزية منهُ، فقال لهُ عكرمة: والله ما إلى درهم منهُ سبيل ولا عندى منهُ دينارًا فأمر خزيمة بحبسه وأرسل يطالبهُ بالمال، فأرسل عكرمة يقول لهُ: إنى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت، فأمر خزيمة بقيده وضربه، فكبل بالحديد وضرب وضيق عليه، فأقام كذلك شهرًا فأضناه ذلك وأضرَّ به، فبلغ امرأتهُ ضرهُ فجزعت لذلك واغتمت غمًا شديدًا، فدعت جاريةً لها ذات عقلٍ وقالت لها: اذهبى الساعة إلى باب خزيمة وقولى للحاجب: إن عندى نصيحة للأمير فإذا طلبها منك فقولى: لا أقولها إلاَّ للأمير خزيمة، فإذا دخلت عليه فسليه الخلوة فإذا فعل فقولى لهُ: ما كان هكذا جزاءُ جابر عثرات الكرام منكَ بمكافأتك لهُ بالضيق والحبس والحديد ثم بالضرب، ففعلت جاريتها ذلك، فلما سمع خزيمة قولها قال: واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمى، قالت نعم، فأمر لوقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس متغيرًا وقد أضناه الضرّ. فلما نظر عكرمة إلى خزيمة ووجوه أهل البلد أحشمهُ ذلك فنكس رأسهُ. فأقبل خزيمة وأكبَّ على رأسه فقبلهُ، فرفع عكرمة رأسهُ وقال: ما أعقب هذا منك، قال خزيمة: كريم فعالك بسوء مكافأتى، فقال لهُ عكرمة: يغفر الله لنا ولك، ثم

إن خزيمة أمر بقيوده أن تفك وأن توضع فى رجليه نفسه، فقال لهُ عكرمة: ما مرادك بذلك، قال مرادى أن ينالنى من الضر ما نالك، فقال لهُ عكرمة أقسم عليك بالله أن لا تفعل، وبعد ذلك خرجا جميعًا وجاءَ إلى دار خزيمة فودعهُ عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنهُ من ذلك، ثم أمر خزيمة بالحمام فأخلى ودخلا جميعًا، وقام خزيمة نفسهُ فتولى خدمة عكرمة، ثم خرج فخلع عليه وحمل إليه مالاً كثيراً وسألهُ أن يسير معهُ إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وكان يومئذ فى الرحلة، فسار معهُ حتى قدما على سليمان، فدخل الحاجب وأخبره بقدوم خزيمة بن بشر، فراعهُ ذلك وقال فى نفسه: والى الجزيرة يقدم علينا بدون أمرنا مع قرب العهد به، ما هذا إلاَّ لحادث عظيم، فلما دخل عليه قال: ما وراءك يا خزيمة قال. خيرٌ يا أمير المؤمنين، قال فما أقدمك، قال يا أمير المؤمنين إنى ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته، قال ومن هو، قال عكرمة الفياض، فأذن لهُ فى الدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة، فرحب به وأدناه من مجلسه وقال لهُ: اكتب حوائجك وما تختاره فى رقعة، فكتبها فقضيت على أتم وجه، ثم أمر لهُ بعشرة آلاف دينار وأضاف لهُ شيئًا كثيراً من التحف والظرف وولاَّه على الجزيرة وإرمينية وما جاورهما، وقال له: أمر خزيمة بيدك إن شئت عزلته، قال: بل ردَّه إلى عمله مكرَّمًا يا أمير المؤمنين، ثم إنهما انصرفا جميعًا ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته.

* * *

المرأة الكريمة

بينما كان عبد الله بن عباس قادمًا من الشام يقصد الحجاز عرج على منزل فطلب من غلمانه طعامًا فلم يجدوا، فقال لوكيله: اذهب فى هذه البرية فلعلك تجد راعيًا أو حيًا فيه لبن أو طعام، فمضى بالغلمان فوقعوا على عجوز فى حى، فقالوا لها: عندك طعام نبتاعهُ، قالت: أما طعام البيع فلا ولكن عندى ما يكفينى وأولادى، قالوا: فأين أولادك؟ قالت: فى رعى لهم

وهذا أوان عودتهم، قالوا: فما أعددت لك ولهم؟ قالت: خبزة مبتلة بالماء، قالوا: وما هو غير ذلك؟ قالت: لا شيء، قالوا: فجودى لنا بشطرها، فقالت: أما الشطر فلا أجود به وأما الكل فخذوه، فقالوا لها: تمنعين النصف وتجودين بالكل، فقالت: نعم لأن إعطاء الشطر نقصة وإعطاء الكل كمال وفضيلة، فإنى أمنع ما يضعنى وأمنح ما يرفعنى، فأخذوها ولم تسألهم من هم ولا من أين جاءوا، فلما وصلوا إلى عبد الله وأخبروه بخبرها عجب من ذلك، ثم قال لهم: احملوها إلىَّ الساعة فرجعوا إليها، وقالوا لها: انطلقى معنا إلى صاحبنا فإنه يريدك، فقالت: ومن صاحبكم، قالوا: عبد الله ابن عباس، قالت: هو والله عنوان الشرف وأسماه فما يريد منى، قالوا: مكافأتك، قالت: أواه والله لو كان ما فعلت معروفًا ما أخذت لهُ بدلاً فكيف وهو يجب على الخلق أن يشارك فيه بعضهم بعضًا، فلم يزالوا بها حتى أخذوها إليه، فسلمت عليه فرد عليها السلام، وقرب مجلسها ثم قال لها ممن أنت؟ قالت: من بنى كلب، قال: فكيف حالك؟ قالت: أسهر الليل وأهجع أكثر الليل وأرى قرة العين فى شيء، فلم يكن من الدنيا شيء إلا وقد وجدته، قال فما ادخرت لبنيك إذا حضروا، قالت: أدخر لهم ما روى عن حاتم طيء حيث قال:

ولقد أبيت على الطوى وأظلهُ حتى أنال بهِ كريم المأكل

فازداد عبد الله تعجبًا، وقال: لو جاءك بنوكِ وهم جياع ما كنت تصنعنين؟ قالت: يا هذا لقد عظمت عندك هذه الخبزة حتى أشغلت بها بالك، دع عنك هذا فإنه يفسد النفس ويؤثر فى العواطف، فقال عبد الله: علىَّ بأولادها فأحضروهم فلما دنوا منهُ رأوا أمهم وسلموا، فأدناهم إليه وقال: إنى لم أطلبكم وأمكم لمكروه، وإنما أحب أن أصلح من شأنكم، فقالوا: إن هذا قلَّ أن يكون إلا عن سؤال أو مكافأة لفعل قديم، فقال: ليس شيء من ذلك ولكن جاورتكم الليلة فوددت وضع شيء من مالى عندكم، قالوا: يا هذا نحن فى خفض عيش وكنان من الرزق فوجهه نحو من يستحق، وإن أردت النوال مبتدئًا من غير سؤال فتقدم فمعروفك مشكور

وبرّك مقبول، فقال: نعم هُو ذاك وأمر لهم بعشرة آلاف درهم وعشرين ناقة، فقالت العجوز لأولادها: ليقل كل واحدٍ منكم شيئًا وأنا أتبعكم فى شيء منهُ، فقال الأكبر:

شهدت عليك بطيب الكلام وطيب الفعالِ وطيب الخبر

وقال الأوسط:

تبرعت بالجود قبل السؤال فعال عظيم كريم الخطر

وقال الأصغر:

وحق لمن كان ذا فعلهُ بأن يسترقَّ رقاب البشر

وقال العجوز:

فعمرك الله من ماجدٍ ووقيت كل الردى والحذر

* * *

جود ملك

قيل: إن الملك خسرو بن برويز كان يحب أكل السمك وكان يومًا جالسًا فى المنظرة وشيرين عنده فجاءه صيادٌ وعنده سمكة كبيرة وأهداها لخسرو ووضعها بين يديه، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت شيرين: بئس ما صنعت، فقال الملك: لمَ؟ فقالت: لأنك إذا أعطيت بعد هذا لأحدٍ من حشمك هذا القدر قال قد أعطانى مثل عطية الصياد، قال لقد صدقت ولكن يقبح بالملوك أن يرجعوا فى هباتهم وقد فات الأمر، فقالت شيرين: أنا أدبر هذا الحال، فقال: وكيف ذلك، فقالت: تدعو الصياد وتقول له: هذه السمكة ذكر هى أم أنثى؟ فإن قال: ذكر، فقل: إنما طلبت أنثى، وإن قال: أنثى، فقل: إنما طلبت ذكرًا، فنودى الصياد فعاد، وكان الصياد ذا ذكاء وفطنة، فقال له خسرو: هذه السمكة ذكر أم أنثى، فقبل الصياد الأرض وقال له: هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى، فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم، فمضى الصياد إلى الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم ووضعها فى جرابٍ كان معهُ وحملها على عنقه وهمَّ بالخروج فوقع من

الجراب درهم واحد، فوضع الصياد الجراب عن كاهلِه وانحنى على الدرهم فأخذه والملك وشيرين ينظران إليه، فقالت شيرين لخسرو: أرأيت خسة هذا الرجل وسفالته سقط منهُ درهم واحد فألقى عن كاهله وانحنى على الدرهم فأخذه ولم يسهل عليه أن يتركهُ ليأخذه غلام من غلمان الملك، فحرد خسرو من ذلك وقال: صدقت يا شيرين، ثم أمر بإعادة الصياد وقال له: يا ساقط الهمة لست بإنسان وضعت هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد وأسفت أن تتركهُ فى مكانه، فقبل الصياد الأرض، وقال: أطال الله بقاءك أيها الملك إننى لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندى وإنما رفعته عن الأرض لأن على وجهه صورة الملك وعلى الوجه الآخر اسم الملك، فخشيت أن يأتى أحد بغير علم يضع عليه قدميه فيكون ذلك استخفافًا باسم الملك وأكون أنا المؤاخذ بهذا فعجب خسرو من كلامه واستحسن ما ذكره فأمر له بأربعة آلاف درهم فعاد الصياد ومعهُ اثنا عشر ألف درهم، وأمر خسرو مناديًا ينادى لا يتدبر أحد برأى النساء فإنه من تدبر برأيهن خسر درهمهُ.

* * *

الوفاء والفضل والمعروف عند بعض الكرماءِ

بينما كان عمر بن الخطاب جالسًا فى بعض الأيام وعنده أكابر الصحابة، وأهل الرأى والإهابة، وهو فى القضايا يحكم بين الرعايا، إذ أقبل عليه شاب من أحسن الشباب، نظيف الأثواب، يكتنفهُ شابان من أحسن الشباب أيضًا، وقد جذباه وسحباه، وأوقفاه بين يدى أمير المؤمنين ولبياه، فلما وقفوا بين يديه، نظر إليهما وإليه، فقالا يا أمير المؤمنين نحن أخوان شقيقان، جديران باتباع الحق حقيقان كان لنا أب شيخ كبير، حسن التدبير، معظم فى قبائله، منزه عن رذائله، معروف بفضائله، ربانا صغارًا، وأولانا مننًا غزارًا، كما قيل فى المعنى:

لنا والدٌ لو كان للناس مثلهُ أبٌ آخر أغناهمُ بالمناقب

فخرج اليوم إلى حديقة لهُ يتنزه فى أشجارها، ويقتطف يانع أثمارها،

فقتلهُ هذا الشاب، وعدلُ عن طريق الصواب، فنسألك القصاص عما جناه، والحكم فيهِ بما أمرك الله، فنظر عمر إلى الشاب، وقال له: قد سمعت فما الجواب، والغلام مع ذلك ثابت الجنان، خالٍ عن الاستيحاش، فخلع ثيابَ الهلع ونزع لباس الجزع، فتبسم عن مثل الجُمان وتكلم بأفصح لسان وحيا بكلمات حسان، ثم قال: يا أمير المؤمنين والله لقد وعيا فيما أدعياه وصدقا فيما نطقا وأخبرا بما جرى وعبرا عم طرا وسأنهي قصتي بين يديك والأمر فيها إليك اعلم أني عريم من العرب العرباء نبتٌ فى منازل البادية وصحبت أسود السنين العادية فأقبلت إلى ظاهر هذا البلد بالأهل والمال والولد فأفضت بى بعض طرائقها إلى المسير بين حدائقها نياق إليَّ حبيبات عليَّ عزيزات بينهنَّ فحل كريم الأصل كثير النسل مليح الشكل حسن النتاج يمشى بينهنَّ كأنه ملك عليهِ تاج، فدنت النوق إلى حديقة قد ظهر من الحائط شجرها، فتناولتها بمشفرها، فطردتها عن تلك الحديقة فإذا شيخ قد ظهر، وتسوَّر الحائط وزفر، وفى يده اليمنى حجر، يتمادى كالليث إذا خطر، فضرب الفحل بذاك الحجر فأصابه فقتلهُ وأبادهُ، فلما رأيت الفحل سقط إلى جنبه وانقلب، توقدت فىَّ جمرات الغضب، فتناولت ذلك الحجر بعينه فضربتهُ به، فكان سبب حتفه ولقى سوء منقلبه، والمرء مقتول بما قتل به، بعد أن صاح صيحة عظيمة، وصرخ صرخة أليمة، فأسرعت هاربًا من مكانى، فلم أكن بأسرع من هذين الشابين فأمسكانى، وأحضرانى كما ترانى، قال عمر وقد اعترفت، بما اقترفت، وتعذر الخلاص ووجب القصاص، ولات حين مناص، فقال الشاب سمعًا وطوعًا لما حكم الإمام، ورضيت بما اقتضته شريعة الإسلام، ولكن لى أخ صغير كان لهُ أب خبير، خصهُ قبل وفاته بمال جزيل، وذهب جليل، وأحضره بين يدىَّ، وسلم أمره إلىَّ، وأشهد الله علىَّ، وقال: هذا لأخيك عندك، فاحفظهُ جهدك، فاتخدت لذلك مدفنًا، ووضعته فيه ولا يعلم بذلك أحدًا إلا أنا، فإن حكمت الآن بقتلى ذهب الذهب، وكنت أنت السبب وطالبك الصغير بحقه، يوم يقضى الله بين خلقه، وإن انتظرتنى ثلاثة أيام أقمت من يتولى أمر الغلام، وعدت وافيًا

بالذمام، ولى من يضمننى على هذا الكلام، فأطرق عمر ساعة ثم نظر إلى من حضر، وقال من يقوم على ضمانه، والعود إلى مكانه، فنظر الغلام إلى وجوه أهل المجلس الناظرين، وأشار إلى أبى ذرٍّ دون الحاضرين وقال هذا يكفلنى، وهو الذى يضمننى، فقال عمر: أتضمنه يا أبا ذر على هذا الكلام؟ قال: نعم أضمنه إلى ثلاثة أيام، فرضى الشابان بضمان أبى ذر، وانتظراه ذلك القدر، فلما انقضت مدة الإمهال وكاد وقتها يزول أو زال، حضر الشابان إلى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر، وأبو ذر قد حضر، والخصم ينتظر، فقال: أين الغريم يا أبا ذر وكيف يرجع من قد فرّ؟ فلا تبرح من مكاننا، حتى تفى بضماننا فقال أبو ذر، وحق الملك العلام، إن انقضى تمام الأيام، ولم يحضر الغلام، وفيت بالضمان، وأسلمت لنفسى وبالله المستعان، فقال عمر والله إن تأخر الغلام لأفعلن فى أبى ذر ما اقتضتهُ شريعة الإسلام، فهملت عبرات الحاضرين، وأرفضت زفرات الناظرين، وعظم الضجيج وتزايد الكلام، فعرض كبار الصحابة على الشابين أخذ الدية، لكف الأذية، فأصرًّا على عدم القبول، وأبيا إلا الأخذ بثأر المقتول، فبينما الناس يموجون تلهفًا لما مرَّ، ويصيحون تأسفًا على أبى ذر، إذ أقبل الغلام، ووقف بين يدى الإمام وسلم عليه أتم سلام، ووجههُ يتهلل مشرقًا، ويتكلل عرقًا، وقال: قد أسلمت الصبى إلى أخوالى، وأطلعتهم على مكان مالهم وأموالى ثم اقتحمت هاجرات الحرّ، ووفيت وفاء الحر الأغر، فعجب الناس من صدقه ووفائه وإقدامه على الموت واجترائه، فقال: من غدر لم يعف عنهُ من قدر ومن وفى رحمهُ الطالب وعفاه وتحققت أن الموت إذا حضر لم ينج منهُ احتراس، وبادرت كى لا يقال ذهب الوفاء من الناس، فقال أبو ذر: والله يا أمير المؤمنين لقد ضمنت هذا الغلام ولم أعلم من أى قوم، ولا رأيته قبل ذلك اليوم، ولكنهُ نظر إلى من حضر فقصدنى وقال هذا يضمننى فلم أستحسن رده، وأبت المروءة أن تخيب قصده إذ ليس فى القصد من بأس، كى لا يقال ذهب الفضل من الناس، فقال الشابان عند ذلك: أمير المؤمنين قد وهبنا لهذا الغلام دم أبينا فلتبدل وحشته بإيناس، كى لا يقال

ذهب المعروف من الناس، فاستبشر الإمام بالعفو عن الغلام وعجب من صدقه ووفائه واستغزر مروءة أبى ذر دون جلسائه واستحسن اعتماد الشابين فى اصطناع المعروف وأثنى عليهما أحسن ثناء وتمثل بهذا البيت:

من يصنع الخير لم يعدم جوائزهُ لا يذهب العرف بين الله والناس

ثم عرض عليهما أمير المؤمنين أن يصرف لهما من بيت المال دية أبيهما فقالا: يا أمير المؤمنين إنما عفونا عنهُ ابتغاء لوجه الله، ومن نيتهُ كذا، لا يتبع إحسانهُ منٌّ ولا أذى.

* * *

مرثية أبى الحسن الأنبارى للوزير أبى طاهر

لما استعرت الحرب بين عز الدولة ابن بويه وابن عمر عضد الدولة ظفر عضد الدولة بوزير عز الدولة أبى طاهر محمد بن بقية فسلمه وشهره وعلى رأسه برنس، ثم طرحهُ للفيلة فقتلتهُ، ثم صلبهُ عند دارهِ بباب الطاق وعمرهُ نيف وخمسون سنة، ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمران يعقوب الأنبارى أحد العدول ببغداد بهذه القصيدة الغراء فلما وقف عليها عضد الدولة قال: وددت لو أنى المصلوب وتكون هذه القصيدة فىَّ:

علوٌّ فى الحياة وفى الممات لحقٌّ تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائمٌ فيهم خطيبًا وكلهم قيامٌ للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمَّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب الساقيات
لعظمك فى النفوس بقيت ترعى بحراسٍ وحفاظٍ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيدٌ علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأسٌّ تباعد عنك تعيير العداة

ولم أرَ قبل جزعك قطُّ جزعًا تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأرِ النائبات
وصير دهرك الإحسان فيه إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعدًا فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك فى فؤادى يخفف بالدموع الجاريات
ولو أنى قدرت على قيامٍ بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصبر عنك نفسى مخافة أن أعدَّ من الجناة
وما لك تربة فأقول نسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحماتٍ غوادٍ رائحاتِ

وقال فيه حين أنزل عن الصليب:

لم يلحقوا بك عارًا إذ صلبت بلى
باءوا باسمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم فى فعلهم غلطوا
وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا
بدفنه ودفنوا الأفضال والكرما
لئن بليت فلا يبلى نداك ولا
تنسى وكم هالكٍ ينسى إذا قدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما
ما زال مالك بين الناس يقتسما

* * *

جود عبيد الله بن العباس

من جوده أنه أتاه رجل وهو فى داره فوقف بين يديه، وقال يا ابن عباس: إن لى عندك يدًا وقد احتجت إليها، فنظر إليه عبيد الله وأحدق فيه بصره فلم

يعرفه فقال: ما يدك عندنا، قال: رأيتك واقفًا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس ضربت أشعتها عليك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت، فقال: نعم إنى أذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك، قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم، قال: ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا.

❊ ❊ ❊

على بن أبى طالب والأعرابى

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: من كان له إلىَّ حاجة فليرفعها لى فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة، ففى ذات يوم جاء أعرابى فقال: يا أمير المؤمنين، إن لى إليك حاجة يمنعنى من ذكرها الحياء، فقال: خطها فى الأرض، فكتب: (إنى فقير)، فقال: يا قنبر اكسه حلتى فقال الأعرابى:

كسوتنى حلة تبلى محاصنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمةً
وليس تبغى بما قدمتهُ بدلا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه
كالغَيث يحيى نداهُ السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به
كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال يا قنبر زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتها على الناس لصلحت بها من شأنهم فقال رضى الله عنه: مه يا قنبر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

❊ ❊ ❊

ابن عامر والرجل

أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف درهم فراجعه الخازن فى ذلك فقال: أنفذه فما بقى إلا نفاذه فإن خروج المال أحب إلىَّ من الاعتذار، فنظر إليه الخازن، فقال: إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته وأنا أردت شيئًا وأراد الجواد الكريم أن يعطى عبده عشرة أضعافه فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ.

* * *

خالد بن يزيد والشاعر

قصد شاعرٌ خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه:

سألت الندى والجود حرَّان أنتما فقـــالا يقينًا إننا لعبيـــدُ
فقلت ومن مولاكما فتطاولا إلىّ وقـالا خـــالدٌ ويزيـد

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمٌ كريم الأمهات مهذب تدفقُ يمناهُ الندى وشمائله
هو البحر من أى الجهات أتيتهُ فلجتهُ المعروف والجودُ ساحله
جواد بسيط الكفّ حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل لهُ: إن زدتنا زدناك، فأنشد:

تبرَّعت لى بالجـودِ حتى نعشتنى
وأعطيتـنى حتـى حسبتـك تلعبُ
وأنبت ريشًا فى الجنـاحين بعدمـا
تساقط منى الريش أو كاد يذهبُ
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى
حليف النـدى ما للندى عنك مذهبُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع وحسبى ما أخذت وانصرف

* * *

خالد بن عبيد الله وأحد الشعراء

قدم أحد الشعراء على خالد بن عبيد الله وهو راكب للغزو، فقال له: قد قلت فيك بيتين من الشعر، قال: أنشدنيهما فقال:

يا واحد العرب الذى ... ما فى الأنام لهُ نظير
لو كان مثلك آخر ... ما كان فى الدنيا فقير

فقال: يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.

* * *

بذل الدراهم لجمع الدرهمين

دخل رجل على المهدى وامتدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم فسأله أن يأذن له فى تقبيل يده فأذن له فقبلها وخرج فما انتهى إلى الباب حتى فرق المال بأسره فعوتب على ذلك فاعتذر وأنشد يقول:

لمست بكفى كفهُ أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفهِ بعدى

* * *

حسن الوفاء

كان الوزير محمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان ركيك الأحوال فسافر متطلبًا ما يسد به أوده واشتهى اللحم يومًا ولم يكن عنده درهم يشترى به لحمًا فأنشأ متأسفًا يقول:

ألا موتٌ يباع فأشتريه ... يخلصنى من الأمر الكريهِ
ألا موت لذيذ الطعم يأتى ... فهذا العيش ما لا خير فيهِ
إذا أبصرت قبراً من بعيد ... وددت لو أننى ممن يليهِ

فسمعهُ رفيق كان معهُ فرق لهُ واشترى له بدرهم ما سدّ رمقه وحفظ الأبيات وتفارقا فراق الزمان ثم بعد مدة قصد رفيقهُ ببغداد وكتب للوزير برقعة بعثها إليه:

ألا قل للوزير فدتهُ نفسى ... فقال مذكرًا ما قد نسيه
أتذكرُ إذ تقول لضنك عيشٍ ... ألا موتٌ يباع فاشتريه

فلما وقف الوزير على ذلك بعث للرجل بسبعمائة درهم وكتب له على الرقعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١] ثم دعاه وخلع عليه وقربه إليه.

* * *

ابن العباس وعمر بن الخطاب

ذكر ابن العباس، قال: خرجت ليلة حالكة قاصدًا دار أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فما وصلت إلى نصف الطريق إلاَّ ورأيت شخصًا أعرابيًا جذبنى بثوبى وقال الزمنى يا عباس، فتأملت الأعرابى فإذا هو أمير المؤمنين عمر وهو متنكر، فتقدمت إليه وسلمت عليه وقلت له إلى أين يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد جولة بين أحياء العرب فى هذا الليل الدامس، فتبعتهُ فسار وأنا وراءه وجعل يجول بين خيام الأعراب وبيوتهم ويتأملها إلى أن أتينا على جميعها وأوشكنا أن نخرج منها فنظرنا وإذا هناك خيمة وفيها امرأة عجوز وحولها صبية يعولون عليها ويبكون وأمامها قدر تشتعل من تحتها النار وهى تقول للصبية: رويدًا رويدًا بنىَّ قليلاً ينضج الطعام فتأكلون، فوقفنا بعيدًا من هناك وجعل عمر يتأمل العجوز تارةً وينظر إلى الأولاد أخرى.

ولما طال الوقت، قلت: يا أمير المومنين ما الذى يوقفك سر بنا، فقال: والله لا أبرح حتى أراها قد صبت للصبية فأكلوا واكتفوا، فوقفنا وقد طال وقوفنا جدًا ومللنا المكان خوفًا من أن تستريب بنا العيون، والصبية لا يزالون يصرخون ويبكون والعجوز تقول لهم مقالتها: «رويدًا رويدًا بنىَّ قليلاً ينضج الطعام فتأكلون»، فقال لى عمر: ادخل بنا عندها نسألها فدخل ودخلت

وراءه، فقال لها: السلام عليك يا خالة، فردت عليه السلام أحسن رد، فقال: ما بالُ هؤلاء الصبية يتصارخون ويبكون، فقالت لهُ: لما هم فيه من الجوع، فقال لها: ولمَ لم تطعميهم مما فى القدر، فقالت لهُ: وماذا فى القدر لأطعمهم ليس هو إلا علالة فقط إلى أن يضجروا من العويل فيغلبهم النوم، وليس لى شىءٌ لأطعمهم، فتقدم عمر إلى القدر ونظرها فإذا فيها حصى وعليها الماء يغلى فتعجب من ذلك وقال لها: ما المراد بذلك، فقالت: أوهمهم أن فيها شيئًا يطبخ فيؤكل فأعللهم به حتى إذا ضجروا وغلب النوم عيونهم ناموا، فقال لها: ولماذا أنت هكذا، فقالت له: أنا مقطوعة لا أخ لى ولا زوج ولا قرابة، فقال لها: لِمَ لمْ تعرضى أمرك على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فيجعل لكِ شيئًا من بيت المال، فقالت له: لا حيا الله عمر ونكس أعلامه والله إنه ظَلمنى.

فلما سمع مقالتها ارتاع من ذلك وقال لها: يا خالة بماذا ظلمك عمر بن الخطاب، قالت له: نعم والله ظلمنا إن الراعى عليه أن يفتش عن كل حال من رعيته لعله يوجد فيها من هو مثلى ضيق اليد كثير الصبية ولا معين ولا مساعد له فيتولى لوازمهُ ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعياله أو صبيتهُ، فقال لها: ومن يعلم عمر بحالك وما أنت به من الفاقة مع كثرة الصبية كان يجب عليك أن تتقدمى وتعلميه، فقالت: لا والله إن الراعى الحرَّ يجب عليه أن يفتش عن احتياجات رعيته خصوصًا وعمومًا فلعل ذلك الشخص الفقير الحال الضيق اليد غلبهُ حياؤه ومنعهُ من التقدم إلى راعيهِ ليعلمهُ بحاله فعلى عمر السؤال عن حال فقراء رعيته أكثر من تقدم الفقير إلى مولاه لإعلامه بحالهِ والراعى الحرُّ إذا أهمل ذلك فيكون هذا ظلمًا منهُ، وهذه سنة الله ومن تعداها فقد ظلم، فعند ذلك، قالَ لها عمر: صدقت يا خالة ولكن عللى الصبية والساعة آتيك.

ثم خرج وخرجت معهُ وكان قد بقى من الليل ثلثه الأخير، فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأذبها عنى وعنهُ إلى أن انتهينا إلى بيت الذخيرة ففتحهُ وحده ودخلهُ وأمرنى فدخلت معه فنظر يمينًا وشمالاً فعمد إلى كيس

من الدقيق يحتوى على مائة رطل وينيف، فقال لى: يا عباس حوِّل على كتفى، فحملتهُ إياه، ثم قال لى: احمل أنت هاتيك جرة السمن وأشار إلى جرة هناك فحملتها وخرجنا وأقفل الباب وسرنا وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينيه وجنبيه فمشينا إلى أن أنصفنا وقد أتعبهُ الحمل لأن المكان كان بعيد مسافة فعرضت نفسى عليه وقلت لهُ بأبى وأمى يا أمير المؤمنين حول الكيس عنك ودعنى أحملهُ، فقال: لا والله أنت لا تحمل عنى جرائمى وظلمى يوم الدين واعلم يا عباس أن حمل جبال الحديد وثقلها خير من حمل ظلامة كبرت أو صغرت ولا سيما هذه العجوز تعلل أولادها بالحصى يا له من ذنب عظيم عند الله سر بنا وأسرع يا عباس قبل أن تضجر الصبية من العويل فيناموا كما قالت.

فسار وأسرع وأنا معه وهو يلهث من التعب إلى أن وصلنا خيمة العجوز، فعند ذلك حول كيس الدقيق عن كتفه ووضعت جرة السمن أمامه، فتقدم هو بذاته وأخذ القدر وأكب ما فيها ووضع فيها السمن وجعل بجانبه الدقيق ثم نظر فإذا النار قد كادت تطفأ، فقال للعجوز: أعندك حطب، قالت: نعم يا بنى وأشارت لهُ إليه، فقام وجاء بقليل منهُ وكان الحطب أخضر فوضع منه فى النار ووضع القدر على الأثافى وجعل ينكس رأسه إلى الأرض وينفخ بفمه تحت القدر فوالله إنى رأيت دخان الحطب يتصاعد من خلال لحيته وقد كنس بها الأرض إذ كان يطأطئُ رأسه ليتمكن من النفخ ولم يزل هكذا حتى اشتعلت النار وذاب السمن وابتدأ غليانه فجعل يحرك السمن بعود فى يده الواحدة ويخلط من الدقيق مع السمن فى يده الأخرى إلى أن أنضج والصبية حولهُ يتصارخون، فلما طاب الطعام طلب من العجوز إناء فأتته به فجعل يصب الطبيخ فى الإناء وهو ينفخه بفمه ليبرده ويلقم الصغار، ولم يزل يفعل هكذا معهم واحداً بعد واحد حتى أتى جميعهم وشبعوا واكتفوا وقاموا يلعبون ويضحكون مع بعضهم إلى أن غلب عليهم النوم فناموا، فالتفت عمر عند ذلك إلى العجوز، وقال لها: يا خالة أنا من قرابة أمير المؤمنين عمر وسأذكر لهُ حالكِ فآتينى غداً صباحًا فى دار الأمان فتجدينى هناك فأرجى

خيرًا، ثم ودعها وخرج وُخرجت معهُ فقال لى: يا عباس إنى حين رأيت العجوز تعلل صبيانها بحصى حسست أن الجبال قد زلزلت واستقرت على ظهرى حتى إذا جئت بما جئت وأطعمتهم ما طبخت لهم وأكتفوا وجلسُوا يلعبون ويضحكون فحينئذ شعرت أن تلكَ الجبال قد سقطت عن ظهرى، ثم أتى عمر داره وأمرنى فدخلت معه وبتنا ليلتنا، ولما كان الصباح أتت العجوز فاستغفرها وجعل لها ولصبيتها راتبًا شهرًا فشهرًا.

* * *

المروءة والوفاة

سقط القائد فديرال يوم اشتدت نيران الحرب فى فرجينيا أمام صفوف الأعداء مثخنًا بالجراح مخضبًا بالدماء يصرخ مستغيثًا لجرعة ماء، فعطف عليه جندى من عساكر الأعداء اسمهُ جمس مور من ولاية برك شمالى كارولينا وأتاه بالماء ونيران المدافع وكراتها تتساقط كالأمطار الغزيرة فى الفريقين فأخذ أصحاب جمس يحذرونه من الخطر ويردعونه عن أن يلقى بيده إلى التهلكة، فلم يلتفت إليهم وظلَّ يسرع إلى عدوه المستغيث فى معمعة الموت الأحمر حتى بلغ إليه وكأس الماء بيده فسقاه، وكان مع ذلك القائد الصريع ساعة ذهبية فقدمها للمنعم إليه فأبى ذاك أخذها، فسأله القائد فديرال عن اسمه، فقال له: إنه جمس مور، ثم رجع مور إلى مركزه ولم ير أحدهما الآخر بعد ذلك، ثم جرح جمس مور وفقد بعض أعضائه فى إحدى وقائع فرجينيا فرجع إلى بيته فى ولاية برك ثم مضى عليه سنين عديدة وفى هذه المدة بلغهُ خبر من القائد فديرال الذى سقاه كأس الماء فى ساحة الحرب أنه وهب له عشرة آلاف دينار جزاء لصنيعه يعطاها مدة أربع سنين أى يعطى كل سنة ألفين وخمسمائة دينار.

* * *

المتوكل وعبيد الله بن يحيى

أبطأ عبيد الله بن يحيى عن الديوان فأرسل إليه المتوكل يتعرف خبره فكتب إليه:

عليلٌ من مكانين ... من الإفلاسِ والدينِ
ففى هذين لى شغلٌ ... وحسبى شغلُ هذينِ

فبعث إليه بألف دينار.

* * *

المستعطى بالحلم

دخل ابن دعبل على بشر بن مروان لما ولى الكوفة فقعد بين السماطين ثم قال: أيها الأمير إنى رأيت رؤيا فأذن لى فى قصها، فقال: قل، فقال:

أغفيت قبل الصبح نوم مسهدِ ... فى ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك جدت لى بوصيفةً ... موسومة حسنٌ علىَّ قيامها
وببدرة حملت إلى وبغلةٍ ... شهباء ناجية يصر لجامها

قال له بشر بن مروان: كل شىء رأيت فهو عندى إلاّ البغلة فإنها دهماء فارغة قال صحيح ما تقول إلا أنى غلطت.

* * *

البطين الشاعر وابن يحيى الأرمينى

قال البطين الشاعر: قدمت على ابن يحيى الأرمينى فكتبت إليه:

رأيت فى النوم أنى راكبٌ فرسًا ... ولى وصيفٌ وفى كفى دنانيرُ
فقال قومٌ لهم حذق ومعرفة ... رأيت خيراً وللأحلام تعبيرُ
رؤياك فسر غداً عند الأمير تجد ... تعبير ذاك وفى الغال التباشيرُ
فجئت مستبشراً مستشعراً فرحًا ... وعند مثلك لى بالفعل تبشيرُ

فوقع لى فى أسفل كتابى، أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، ثم أمر لى بكل شىء ذكرته فى أبياتى ورأيته فى منامى.

التيمىّ والفضل بن الربيع

دخل التيمىّ إلى الفضل بن الربيع فى يوم عيد فأنشده:

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة ... وإن عظموا للفضل إلا صنائعُ
ترى عظماء الناس للفضل خشعًا ... إذا ما بدا والفضل كلهُ خاشعُ
تواضع لما زاده الله رفعةً ... وكل جليل عنده متواضعُ

فأمر لهُ بعشرة آلاف درهم.

* * *

الصانع وصائغ الخليفة

حكى أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة وكان واحد أهل زمانه، فساء حالهُ وافتقر بعد غناه فكره الإقامة فى بلده فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكانًا لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثير يعملون الأشغال للسلطنة ولهُ سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم، فاتفق أن الملك طلب المعلم وناولهُ فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده كانت فى يد إحدى حظاياه فانكسرت، فقال له: الحمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه فى عملها، فلما أخذها وأراها للصناع الذين عندهُ وعند غيره، فما قال له أحد إنه يقدر على عملها، فازداد المعلم لذلك غمًا ومضت مدة وهى عندهُ لا يعلم ما يصنع، فاشتد الملك على إحضارها، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سوارًا، فلما رأى الصائغ الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه: هذا وقت المروءات أعملها ولا أؤاخذه ببخله علىَّ وعدم إنصافه ولعلهُ يحسن إلىَّ بعد ذلك فحطَّ يدهُ فى درج المعلم

وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن مما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحًا شديدًا، ثم مضى بها إلى الملك فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعتهُ، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه فبقى الصانع يرجو مكافأته عما عامله به فما التفت إليه المعلم، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئًا، فما مضت إلاَّ أيامٌ قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجى أساور على تلك الصورة فطلبهُ ورسم شكل ما يحتاج إليه وأكد عليه فى تحسين الصنعة وسرعة العمل، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك، فامتثل مرسومه ولم يزل منتصبًا إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيده شيئًا على الدرهمين فى كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجبل معه، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتًا يشرح فيها حالهُ ليقف عليها الملك، فنقش فى باطن أحدهما هذه الأبيات نقشًا خفيًا يقول:

مصائب الدهر كفى ... إن لم تكفى فعفى
خرجت أطلب رزقى ... وجدت رزقى توفى
فلا برزقى أحظى ... ولا بصنعة كفى
كم جاهل فى الثريا ... وعالم متخفى

وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما فى قطنٍ وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهلهِ بالصنعة ولما سبق له فى القضاء فأخذهما المعلم ومضى بهما فرحًا إلى الملك وقدمهما إليه، فلم يشك فى أنهما صنعتهُ فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده فى آخر النهار شيئًا عن الدرهمين، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب، فحضرت وهما فى يديها فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفى حسن صنعتهما، فقرأ الأبيات فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين

السوارين، قال: أنا أيها المَلك، قال فما سبب نقش هذه الأبيات، قال: لم يكن عليهما أبيات، قال: كذبت ثم أراه النقش، وقال: إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك، فأصدقه الحق فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم، فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلبَ نعمتهُ وتعطى للصانع وأن يكون عوضًا عنهُ فى الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدمًا سعيدًا، فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضى عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر.

* * *

إحسان كريم إلى عدوه

كان بين غسان بن عباد وبين على بن موسى عداوة عظيمة وكان على بن موسى ضامنًا أعمال خراج كِضياع وغيره فبقيت عليه بقية مقدارَ أربعين ألف دينار، فألح عليه المأمون بطلبها وشدد بها إلى أن قال لعلى بن صالح حاجبه، أمهلهُ ثلاثة أيام فإن أحضر المال وإلاَّ فاضربهُ بالسياط حتى يدفع المال أو يتلف، فانصرف على بن موسى من دار المأمون وقد ارتاع وهو لا يعرف وجهًا يتجه إليه، فقال له كاتبه: إذا عرجت على غسان بن عباد وعرفتهُ خبرك رجوت أن يعينك على أمرك، فقال له إن بينى وبينهُ من العداوة ما عرفت، فقال له: نعم ولكن الرجل ريحى كريم لا تمنعهُ العداوة التى بينكما عن فعل المعروف الذى هو من شيم الكرام، فقام على بن موسى ومضى إلى أن جاء ودخل مع كاتبه على غسان بن عباد، فلما رآه غسان قام إليه وتلقاه جميلاً ووفاه حقهُ فى الخدمة، وقال لهُ: دع الأمر الذى بينى وبينك على حاله ولكن دخولك إلى دارى توجب حرمته بلوغ ما رجوتهُ منى فاذكر إن كان لك حاجة، فقص كاتبهُ عليه القصة، فقال له غسان: أرجو أن يكفيك الله تعالى حقيقة أمرك ولم يزد على ذلك شيئًا، فقام على بن موسى من عنده وهو نادم على قصده غسان ويئس من أمره وقال لكاتبه ما أفدتنى بدخولى على غسان

سوى تعجيل الشماتة والهوان، فلم يصل على بن موسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعهُ البغال وعليها المال فتقدم على بن موسى وتسلمهُ وبات فرحًا مسرورًا، وعند الصباح بكر إلى دار أمير المؤمنين ليدفع المال فوجد غسان قد سبقهُ هناك ودخل على المأمون وقال له: يا أمير المؤمنين، إن لعلى بن موسى بحضرتك حرمة وخدمة وسابق أصل وقد لحقه من الخسران فى ضمانه ما تعارفه الناس وقد توعدته من الضرب بالسياط ما أطار عقله وأذهب لبهُ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزينى من حسن كرمه ببعض ما عليه فهى صنيعة بى من إحسانه، ولم يزل يتلطف بالمأمون حتى حطَّ عنهُ نصف ما عليهِ واقتصر منه بالنصف عشرين ألف دينار، فقال غسان للمأمون سمعًا وطاعة ولكن على أن يجدد أمير المؤمنين لهُ الضمان ويخلع عليه لكى تقوى نفسهُ ويعرف بها مكان الرضى عليه من أمير المؤمنين أبقاه الله، فأجاب المأمون إلى ذلك، فقال له غسان: إن شاء أمير المؤمنين فلتحمل الدواة إلى حضرته لتوقيع ما سمح به فيما قال، قال: افعل فحملت الدواة إلى المأمون وقدمها عنان له فوقع حينئذ لعلى بن موسى، وخرج على بن موسى والخلع على كتفيه والتوقيع بيده، فلما حضر إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار وأرسلها إلى غسان وشكرهُ على جميل فعله، فقال غسان لكاتبه: والله ما شفعت به عند أمير المؤمنين إلا لتتوفر عليه العشرون ألف دينار وينتفع بها هو فامض بها إليه وردها فلست والله آخذها فهى لهُ، فلما رجع الكاتب إلى على بن موسى مولاه وبلغهُ ما قال، عرف عند ذلك قدر ما فعلهُ غسان من الجميل، ولم يزل يخدمهُ ويوقره إلى آخر العمر.

* * *

الأصمعى وأحد الكرماء

حكى الأصمعى قال: قصدت فى بعض الأيام رجلاً كنت آتيه أحيانًا كثيرة لكرمه وجوده فلما أتيت داره وجدت على بابه بوابًا فمنعنى من الدخول إليه وقال لى: والله يا أصمعى ما أوقفنى على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حالهِ

وقصور يده وما هو فيه منَ الضيق، فقلت له أريد أن أكتب له رقعة أتوصلها إليه، فقال سمعًا وطاعة فأحضر لى قرطاسًا وقلمًا ودواة فأخذت وكتبت له شعرًا:

إذا كـان الكريم لهُ حجـابٌ فما فضل الكريم على اللئيم

ثم طويت الرقعة ودفعتها إلى الحاجب وقلت له: أوصل هذه الرقعة إليه، ففعل ومضى بالرقعة قليلاً ثم عاد إلىَّ بالرقعة عينها، وقد كتبت تحت شعرى جوابًا شعرًا:

إذا كان الكريم قليل مالٍ تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار، فتعجبت من سخائه مع قلة ما بيده فقلت فى نفسى والله لأتحفنَّ هارون الرشيد بهذا الخبر، فانطلقت حتى أتيت قصر الخلافة فاستأذنت ودخلت فسلمت عليه بالخلافة، فلما رآنى قال لى من أين يا أصمعى؟ قلت: من عند رجل من أكرم الأحياء من بعد أمير المؤمنين، قال: ومن هو؟ فدفعت له الصرة وسردت عليه الخبر، فلما رأى الصرة قال هذه من بيت مالى ولا بد لى من الرجل، فقلت: والله يا أمير المؤمنين إنى أستحى أن أكون سبب روعه بإرسالك إليه، فقال: لا يغمك ذلك، ثم التفت إلى بعض خاصته وقال لهُ امض مع الأصمعى، فإذا أراك دارًا فادخل وقل لصاحبه: أجب أمير المؤمنين وليكن دعاؤك له بلطافةٍ من غير أن تزعجهُ، قال الأصمعى: فمضينا ودعونا الرجل فجاء ودخل على أمير المؤمنين وسلم بالخلافة، فقال له هارون الرشيد: ألست أنت الذى وقفت لنا بالأمس وشكوت لنا رقة حالك وقلت: إنك فى ضيق شديد من الاحتياج فرحمناك ووهبنا لك هذه الصرة لتصلح بها حالك وقد قصدك الأصمعى ببيت من الشعر فدفعتها له، فقال: نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوتهُ لأمير المؤمنين من رقة حالى وشدة احتياجى ولكننى استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدى إلا كما أعادنى أمير المؤمنين، فقال هارون الرشيد: لله در بطن أتاك فما ولدت العرب أكرم منك، ثم بالغ بإكرامه وخلع عليه جعلهُ من خاصتهِ.

والى البصرة والخيزران

لما ولى محمد بن سليمان البصرة أهدى إلى الخيزران مائة وصيف بيد كل وصيف جامٌ من ذهب مملوءًا مسكًا، فقبلت ذلك وكتبت إليه وقالت: «عافاك الله إن كل ما وصل إلينا منك ثمن رأينا فيك فقد بخستنا بالقيمة وإن كان وزن ميلك إلينا فظننا فيك فوقه».

* * *

إكرام ثلاثة أصدقاء مخلصين بعضهم بعضًا

نقل عن الواقدى قال: كان لى صديقان أحدهما هاشمى وكنا فى الصداقة كنفس واحدة، فنالتنى ضيقة شديدة وقد حضر العيد، فقالت لى امرأتى يا مولاى أما نحن فقد نصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطع قلبى عليهم حزنًا ورحمةً لأنهم يرون صبيان جيراننا ومعارفنا وقد تزينوا فى العيد وهم فرحون، فلا بأس إذا احتلنا فى ما يمكننا أن نصرفهُ فى كسوتهم، فرأيت كلامها صوابًا وقد قطعت فؤادى من هذا الحديث، ففكرت فى الحيلة وكتبت إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة علىَّ بما يمكنهُ ويحضره، فوجه إلىَّ كيسًا فيه ألف درهم، فما استقرَّ قرارهُ حتى كتب لى صديقى الآخر يشكو إلىَّ مثلما شكوت أنا إلى صديقى الهاشمى، فوجهت إليه بالكيس على حاله وخرجت إلى المسجد وأنا مستحى من امرأتى، فلما دخلت عليها وقد علمت بما فعلت لم تعنفنى، فبينما أنا كذلك إذ دخل علىَّ صديقى الهاشمى ومعهُ الكيس وهو باقٍ بختمه فقال: اصدقنى عما فعلتهُ بما وجهت بهِ إليك، فأخبرتهُ بالحكاية على حقيقتها، فقال: إنك أرسلت تطلب منى التوسعة وأنا والله ثم والله لا أملك شيئًا سوى هذا الكيس الذى بعثت به إليك، ثم إنى بعدما أرسلتهُ لك كتبت إلى صديقنا أسأله المواساة إن كان يمكنهُ فوجه إلىَّ الكيس بذاته وهو بختمى وها أنا ذا أتيت به إليك، وبحيث إننا كلنا فى ضيق ولا يوجد عند أحدنا غير هذا الكيس فهلم نقتسمهُ، ثم إنه

فتحهُ وأخرج منهُ مائة درهم للمرأة وفرق على كلٍّ منا أنا وصديقى ثلاثمائة ألف درهم وأخذ هو مثلنا ثلاثمائة، وبلغ المأمون ذلك فأرسل استدعانى رسألنى عن القضية فشرحتها لهُ كما هى فاستدعى صديقىً وأمر لكل منا بألفى دينار ولامرأتى بألف دينار.

* * *

قيل فى إسحاق بن عبد الرحمن

كان فى بغداد رجل من أهل السخاء رفيع القدر رقيق الجانب قال فيه أحد الشعراء:

نفى الجوع من بغداد إسحاق ذو الندى
كما قد نفى جوع الحجاز أخوهُ
ومـــا يك من خيرٍ أتوه فإنما
فعـــــال عزيزٍ قبلهم فعلوهُ
هــو البحر بل لو حلَّ بالبحر وفدهُ
ومن يجتديه ساعـــةً نزفوهُ

* * *

رثاء إسحاق بن عزيز

أنشد الزبير الشاعر يرثى إسحاق بن عزيز:

ولئن بكى جزعًا عليك لقد بكت جزعًا عليهِ مكارم الأخلاقِ
يا خير من بكت المكارم فقدهُ لم يبقَ بعدك للمكارم باقِ
لو طاف فى شرق البلاد وغربها لم يلق إلاَّ ماجدًا لك لاقِ
بخلت بما حوت الأكفُّ وإنما خلق الإله يديك للإنفاقِ
ما بتَّ من كرم الطبائعِ ليلةً إلا لعرضك من نوالك واقِ

* * *

عمارة بن حمزة وأيوب المكى

بعث أيوب المكى بعض أولاده إلى عمارة بن حمزة فأدخله الحاجب، قال: ثم دنا إلى ستر مسبل، فقال: ادخل فدخلت، فإذا عمارة مضطجع محول وجهه إلى الحائط فقال لى الحاجب: اذكر حاجتك، فقلت: لعلهُ نائم، قال: لا، فقلت: جعلنى الله فداك أخوك يقرئك السلام ويذكر دينًا عليهِ ويقول: بهظنى وسد وجهى ولولاه كنت موضع رسولى تسأل أمير المؤمنين قضاءهُ عنى، فقال: وكم دين أبيك، قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فقال: وفى مثل هذا القدر أكلم أمير المؤمنين يا غلام احملها معهُ، وما التفت إلىَّ ولا كلمنى بغير هذا.

* * *

عمارة والفضل بن الربيع

قال الفضل بن الربيع كان أبى يأمرنى بملازمة عمارة، فاعتل عمارة وكان المهدى سيئ الرأى فيه، فقال له يومًا: يا أمير المؤمنين إن مولاك عمارة عليل وقد أفضى إلى بيع فرشه وكسوته، قال: غفلتُ عنهُ وما كنت أظن أنهُ بلغ إلى هذه الحالة احمل إليه خمسمائة ألف درهم يا ربيع وأعلمه أن لهُ عندى بعدها ما يحب، فحملها أبى من ساعته، وقال لى: اذهب بها إلى عمك وقل لهُ: أخوك يقرئك السلام، ويقول: أذكرت أمير المؤمنين أمرك فاعتذر عن غفلته عنك وأمر لك بهذه الدراهم، وقال لك: عندى بعدها ما تحب، فأتيتهُ بالمال ووجههُ إلى الحائط فسلمت، فقال لى: من أنت، فقلت: ابن أخيك الفضل بن الربيع، فقال: مرحبًا بك، وأبلغته الرسالة، فقال: قد كان طال لزومك لنا وقد كنا نحسب أن نكافئك على ذلك، ولم يمكنا قبل هذا الوقت انصرف فهى لك، فهبتهُ أن أردها عليهِ فتركت البغال على بابهِ وانصرفت إلى أبى فأعلمتهُ، فقال: يا بنى خذها بارك الله لك فيها، عمارة ليس ممن يهب فيرد، وكان أول مالٍ ملكتهُ.

الحجاج والرجل

خطب الحجاج فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه فأتاه قومهُ وزعموا أنهُ مجنون وسألوه أن يخلى سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عن صدقه.

* * *

عفو عبد الملك

تغيظ عبد الملك بن مروان على رجاء بن حيوة، فقال: والله لئن أمكننى الله منهُ لأفعلنَّ به كذا وكذا، فلما صار بين يديه، قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحبَّ الله، فعفا عنهُ وأمر لهُ بصلة.

* * *

مدعى النبوة والملك

حكى أن رجلاً ادعى النبوة أيام أحد الملوك، فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبىٌّ، قال: نعم، قال: وإلى من بعثت، قال: إليك، قال: أشهد أنك سفير أحمق، قال: إنما يبعث لكل قوم مثلهم، فضحك الملك وأمر له بشىء.

* * *

الحجاج والشيخ

خرج الحجاج يومًا للتنزه فصرف عنهُ أصحابهُ وانفرد بنفسه فلاقى شيخًا من بنى عجل فقال له: من أين أنت يا شيخ؟ قال: من هذه القرية، قال: ما رأيكم بحكام البلاد، قال: كلهم أشرار يظلمون الناس ويختلسون أموالهم، قال: وما قولك فى الحجاج، قال: هذا أنجس الكل سوَّد الله وجههُ ووجه من استعمله على هذه البلاد، قال الحجاج: أتعرف من أنا؟ فقال: لا والله،

قال: أنا الحجاج، قال: أنا فداك وأنت تعرف من أنا، قال: لا، قال أنا زيد ابن عامر مجنون بنى عجل أُصرع كل يوم مرة فى مثل هذه الساعة، فضحك الحجاج وأجازه.

* * *

قيس بن سعد والأعرابى

قيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك، قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت: إنه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم، فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها، وقال: شأنكم، فقلت: ما أكلنا من التى نحرت لنا البارحة إلا اليسير، فقال: إنى لا أطعم أضيافى الغابَّ، فأقمنا عندهُ أيامًا والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائة دينار وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا منهُ، ومضينا، فلما تواسط النهار إذا رجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن القرى، لتأخذنها وإلا طعنتكم برمحى، فأخذناها وانصرف.

* * *

جحظة البرمكى

قال أبو الحسن المعروف بجحظة البرمكى:

أنا ابن أناس موَّل الناس جودهم ... فأضحوا حديثًا للنوال المشهرِ

فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبرٍ ... ولم يخل من تقريظهم بطن دفترِ

* * *

وصف المعروف والكرم

قال رجل من فزارة يصف المعروف والكرم:

وإلا يكن عظمى طويلاً فإننى ... لهُ بالخصال الصالحات وصولُ

ولا خير فى حسن الجسوم ونبلها ... إذا لم تزن حسن الجسوم عقولُ

إذا كنت فى القوم الطوالِ علوتهم بعارفة حتى يقال طويلُ
وكم قد رأينا من فروعٍ كثيرة تموتُ إذا لم تجنهنَّ أُصولُ
ولم أر كالمعروف أما مذاقهُ فحلوٌ وأما وجههُ فجميل

وقال أبو دلف العجلى:

أجود بنفسى دون قومى رافعًا لما نابهم قدمًا وأغشى الدواهيا
وأقتحم الأمر المخوف اقتحامهُ لأدرك مجدًا أو أعاد ثاويا

* * *

المتوكل وإبراهيم بن المدبر

قال إبراهيم بن المدبر: مرض المتوكل مرضًا خيف عليهِ منهُ، ثم عوفى وأذن للناس فى الوصول إليه فدخلوا على طبقاتهم كافة ودخلت معهم، فلما رآنى استدنانى حتى قمت وراء الفتح ونظر إلىَّ مستنطقًا فأنشدته:

يومٌ أتانا بالسرور فالحمد لله الكبير
أخلصت فيه شكره ووفيت فيه بالنذور
لما اعتللت تصدعت شعب القلوب من الصدور
من بين ملتهب الفؤا د وبين مكتئب الضمير
يا عدَّتى للدين والـ ـدنيا وللخطب الخطير
كانت جفونى شرَّة ال آماق بالدمع الغزير
لو لم أمت جزعًا لعمـ ـرُك إننى عين الصبور
يومى هنا لك كالسنيـ ـن وساعتى مثل الشهور
يا جعفر المتوكل الـ ـعالى على البدر المنير
اليوم عاد الدين غضَّ العود ذا ورق نضير
واليوم أصبحت الخلا فة وهى أرسى من ثبير
قد حالفتك وعاقدتـ ـك على مطاولة الدهور

فقال المتوكل للفتح: إن إبراهيم ينطق عن نية خالصة وودٍّ محض وما قضينا حقهُ، فتقدم بأن يحمل إليه الساعة خمسون ألف درهم.

أبو سعيد وأبو تمام الشاعر

قال أبو تمام يمدح أبا سعيد وكان قد أجازه وأكرم مثواه:

أبا سعيـــد ومـــا وصفى بمتهم
على المعالى ومـا شكرى بمخترم
لئن جحـدتك مـا أوليت من حسن
إنى لفى اللؤم أحظى منك فى الكرم
أمسى ابتسامك والألوان كاسفـــة
تبسم الصبح فى داج من الظلم
كـــذا أخـوك الندى لو أنه بشر
لم يلف طرفـة عين غير مبتسم
رددت رونق وجهى فى صحيفتـه
ردَّ الصقـال بهـاء الصارم الخـذم
ومـا أبالى وخير القول أصـدقـهُ
حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

* * *

الواثق وحسين بن الضحاك

حدث إبراهيم بن الحسن بن سهل، قال: كنا مع الواثق بالفاطول وهو يتصيد فصاد صيداً حسنًا من الأوزّ والدراج وطير الماء وغير ذلك، ثم رجع فتغذى ودعا بالجلساء والمغنين وطرب، وقال: من ينشد؟ فقام الحسين بن الضحاك فأنشده:

سقى الله بالفاطول مسرح طرفكا وخص بسقياه مناكب قصركا

حتى انتهى إلى قوله:

تحيـــن للـدراج فى جنبـــاته وللعزّ آجـــــالٌ قدرن بكفكا
حتـوفًا إذا وجهتهـن قـواضبـا عجـالاً إذا أغريتهـن بزجـركا
أبحت حمامًا مصعدًا ومصـوبًا ومـا رمت فى حاليك مجلس لهوكا

تصرف فيه بين نأى ومسمع ومشمولة من كف ظبى لسقيكا
قضيت لبانات وأنت مخيم مريح وإن شطت مسافة عزمكا
وما نال طيب العيش إلا مودع ولا طاب عيش نال مجهود كدكا

فقال الواثق: ما بعد الراحة ولذة الدعة شيء، فلما انتهى إلى قوله:

خلقت أمين الله للخلق عصمةً
وأمنًا فكلٌّ فى ذراك وظلكا
وثقت بمن سماك بالغيب واثقًا
وثبت بالتأييد أركان ملككا
فأعطاك معطيك الخلافة شكرها
وأسعد بالتقوى سريرة قلبكا
وزادك من أعمارنا غير منة
عليك بها أضعاف أضعاف عمركا
ولا زالت الأقدار فى كل حالة
عداة لمن عاداك سلمًا لسلمكا
إذا كنت من جدواك فى كل نعمة
فلا كنت إن لم أفن عمرى بشكركا

فطرب الواثق وضرب الأرض بمخصرة كانت فى يده وقال: لله درك يا حسين ما أقرب قلبك من لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين جودك ينطق المفحم بالشعر والجاحد بالشكر، فقال له: لن تنصرف إلا مسروراً وأمر له بخمسين ألف درهم.

* * *

المتوكل وابراهيم بن العباس

لما عقد المتوكل لولاة العهود من ولده ركب بسرّ من رأى ركبة لم يرَ أحسن منها وركب ولاة العهود بين يديه والأتراك بين أيديهم الطبرزينات المحلاة بالذهب ثم نزل فى الماء فجلس فيه والجيش معهُ فى الجوانحيات

وسائر السفن، وجاء حتى نزل فى القصر الذى يقال له العروس وأذن للناس فدخلوا إليه، فلما تكاملوا بين يديه مثل إبراهيم بن العباس بين الصفين فاستأذن فى الإنشاد فأذن لهُ فأنشد:

ولما بدا جعفرٌ فى الخميس ... بين المطلِّ وبين العروس
بدا لابسًا بهما حلةً ... أزيلت بها طالعات النحوس
ولما بدا بين أحبابه ... ولاة العهود وغرس النفوس
غدا قمرًا بين أقماره ... وشمسًا مكللة بالشموس
لإيقاد نارٍ وإطفائها ... ويومٍ أنيقٍ ويوم عبوس

ثم أقبل على ولاة العهود فقال:

أضحت عرى الإسلام وهى منوطةٌ ... بالنصر والإعزاز والتأييدِ
بخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثةٍ ... كنفوا الخلافة من ولاة عهودِ
قمرٌ توافت حولهُ أقمارهُ ... فخففن مطلع سعده بسعودِ
رفعتهم الأيام وارتفعوا بها ... فسعوا بأكرم أنفسٍ وجدودِ

* * *

الملك المؤيد وصفى الدين الحلىّ

حمل الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل إلى صفى الدين الحلىّ تحفًا وكسوات البيت ومهماته، فقال يمدحه ويشكر فضلهُ:

جزاك الله من حسناك خيرًا ... وكان لك المهيمن خير راعِ
فقد قصرت بالإحسان لفظى ... كما طولت بالإنعام باعى
فأخرنى الحياءُ وليس يدرى ... جميع الناس ما سبب امتناعى
فأشكر حسن صنعك فى اتصال ... وخطوى نحو ربعك فى انقطاع
وقافية شبيهُ الشمس حسنًا ... تردد بين كفى واليراعِ
لها فضلٌ على غرر القوافى ... كما فضل البقاع على البقاعِ
غدت تثنى على علياك لما ... ضمنت لربها نجح المساعى
قدمت ولا برحت مدى الليالى ... سعيد الجدّ ذا أمرٍ مطاعِ

البحترى وأبو تمام

قال البحترى: قال لى أبو تمام: بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالاً جليلاً فبم مدحتهم فأنشدنى شيئًا منهُ، فأنشدته فقال لى: كم أعطوك؟ فقلت: كذا، فقال لى: لقد ظلموك وما وفوك حقك، والله فإن بيتًا منها خير مما أخذت، ثم أطرق قليلاً فقال: لعمرى لقد مات الكرم وذهب الناس وغاضت المكارم وكسدت أسواق الأدب، أنت والله يا بنى أمير الشعراء، غداً بعدى، فقمت فقبلت رأسه ويديه ورجليه، وقلت: والله إن هذا القول أسرُّ إلىَّ مما وصل منهم.

* * *

طاهر بن محمد والبحترى

من أخبار البحترى أنهُ كان بحلب شخص يقال لهُ طاهر بن محمد الهاشمى مات أبوه وخلف لهُ مقدار مائة ألف دينار فأنفقها على الشعراء والزوَّار فى سبيل الله، فقصده البحترى من العراق فلما وصل إلى حلب، قيل له: إنه قعد فى بيته لديون ركبته، فاغتم البحترى لذلك غمًا شديداً وبعث المدح إليه مع بعض مواليه، فلما وصلته ووقف عليها بكى ودعا بغلامٍ له، وقال: بع دارى، فقال له: أتبيع دارك وتبقى على رءوس الناس، فقال: لا بدَّ من بيعها، فباعها بثلاثمائة دينار فأخذ صرَّة وربط فيها مائة دينار وأنفذها إلى البحترى وكتب إليه معها رقعة فيها هذه الأبيات:

لو يكون الحباءُ حسب الذى أنـ ـتَ لدينا به محلٌّ وأهلُ
لحثيتُ اللجين والدرَّ واليا قوت حثوًا وكان ذاك يقلُّ
والأديب الأريب يسمح بالعذ رِ إذا قصرَ الصديقُ المقلُّ

فلما وصلت الرقعة إلى البحترى ردَّ الدنانير وكتب إليه:

بأبى أنت والله للبرّ أهلُ والمساعى بعدُ وسعيك قبلُ
والنوال القليل يكثر إن شا ءَ مرجيك والكثير يقلُّ

غيـر أنى رددت برَّك إذ كـا نَ ربًا منك والربا لا يحلُّ
وإذا ما جزيت شعراً بشعرٍ قضى الحق والدنانير فضلُ

فلما عادت الدنانير إليه حلَّ الصرة وضمَّ إليها خمسين ديناراً أخرى وحلف أن لا يردها عليه وأرسلها، فلما وصلت إلى البحترى أنشأ يقول:

شكرتك إن الشكر للعبد نعمةٌ ومن يشكر المعروف فالله زائده
لكل زمـانٍ واحـدٌ يقتـدى به وهذا زمان أنت لا شك واحده

* * *

رب المروءة والفقير

حكى أن أحد أصحاب المروءة كان لهُ جار فقير، فبينما كان ذات يوم ماراً بدار ذاك الرجل إذ سمع ابنته تقول لأمها: يا أمى ليس عندنا الليلة ما نأكلهُ، فقالت لها أمها: صبراً لعل الله يشفق علينا فينقذنا من مخالب الجوع، فلما سمع الرجل ذلك بكى من الحنان، وقال لابنةٍ لهُ: خذى هذه الدراهم إلى بيت فلان جارنا ولا تدعى أحداً يراك أو يعلم بما تفعلين، فذهبت الابنة إلى بيت الفقير فرأت بنتهُ فى الباب فأعطتها الصرة وقالت ساترة وجهها: خذى هذه الدراهم، فسألتها عن اسمها فلم تجب فعادت إلى أمها بتلك الصرة، فقالت لها: من أعطاك هذه؟ فقالت: لا أعلم لأن الذى دفعها إلىَّ كان متنكراً، فأخذت تدعو وأهل البيت لذلك الرجل المحسن الذى بعثه الله إليهم من حيث لا يدرون.

* * *

عنترة وشداد وسمية

غضب شداد يومًا على ابنه عنترة وكان قد وشى به إليه أحد حاسديه فهم بضربه وكان فتًى صغيراً فمنعته سمية فلم يمتنع بل نزل عليه بسوط كان فى يده، فلما رأت سمية ذلك فاض دمعها وتحدر وأمسكت السوط بيدها فدفعها شداد فى صدرها وأراد أن يضربها، فألقت نفسها على عنترة فجذبها فوقع

الرداء عن رأسها وبقيت مكشوفة الرأس منزعجة الحواس وقالت: والله ما أمكنك من ضربه حتى تضربنى قبلهُ، فرمى السوط من يده، وقال: ويلك يا سمية تهتكين نفسك لأجل هذا العبد ولا تدعينى أصل إليه وقد كنت قبلا تحرضينى عليه فما الذى أوجب هذه المحبة، فخجلت سمية وأنشدت تقول:

حاشا لربة بيتٍ منك صالحةٍ
كفت يديك فعادت منك بالخجلِ
تنزه العبد عن أمر عنيت بهِ
حاشا لعنتر من شينٍ ومن زللِ
هذا الشجاع الذى عاينت مشهده
يوم النزال كمثل الضيغم البطلِ
لولاه ما كان فى الأحياء من رجلٍ
يخلص المال من أعداك بالعجلِ
لما أتتنا خيول القوم غائرةً
من آل قحطان مثل العارض الهطلِ
أجارنا وحمانا بعدما ملكت
منا البنات ونجانا من الوجلِ
فخلهِ فهو ليثٌ فى عزيمتهِ
يحمى الحريم ولا يخشى من الأجلِ
ليث الحروب ونار الحرب موقدةٌ
يلقى الرجال بقلبٍ قدَّ مذ جبلِ
هذا الهزبرُ الذى عاينت مشهدهُ
عند اختلاف القنا والطعن بالأسلِ
لولاه قد كانت الأعداء مالكة
رقابنا وتشتتنا من الحللِ

ثم قالت له: لقد هاجمنا بنو قحطان فسبوا نساءنا وكادوا أن يقتلونا لولا عنترة البطل الهمام أفيحمل فى شرع المروءة أن نعاملهُ على ما فعل بهذه

المعاملة القاسية ثم أنشدت:

شـداد لو ترنى والوجه مكشوفُ
وثقل ردفى وراء القـوم مردوفُ
وعبلـة أردفوهـا مـن ورا بطـل
ودمعهـا سائلٌ فى الخد مـذروفُ
نساءُ عبس حيـارى لا سبيل لها
قناعهنَّ عن الوجنـاتِ مكشـوفُ
حتى العبيـد الأُلى من حولهم هربوا
وكل عبـدٍ تولى وهـو ملهـوفُ
فخاضهـا عنترٌ والشـوس ثائـرة
وأفقهـا بغبـار الحـرب ملفـوفُ
وصاننـا وحمـانا بعـد غربتنا
مع الرجـال وعرض الكل مقـذوفُ

فرق قلبهُ لعنترة وفكهُ من الوثاق وقد عجب من كتمانهِ ذلك وانقيادهِ إلى الكتاف ثم اعتذر لهُ وأطلقهُ.

* * *

عنترة بن شداد عند كسرى

كان عنترة بن شداد عند كسرى أنوشروان وكان مكرمًا عنده فحسده بعضهم وهم بقتله، فلما بلغ كسرى ذلك غضب وأمر بقتل ذاك الرجل، وقال لمن حوله: إن هذا يفدى بألوف من البشر ويستحق أن يكرم ويعتبر، فامتثل عنترة بين يديه، وقال: مولاى بالله لا تفعل فإن إحسانك قد سبق والعفو بمثلك أليق وأنا قد عزمت على الرحيل وما أشتهى أن يذكرنى أحد إلا بالجميل، فعجب كسرى من حسن أدبه وبش فى وجهه ثم عفا عن الرجل، وبعد قليل دخل كسرى إلى بستان حافل بالأشجار مزدان بأحاسن الأزهار فنصب له فيه خيمة فجلس وعنترة إلى جانبه وقد قدم لهم الشراب وجهزت

الأطعمة، فنهض المنذر وقال: أنشدنا يا أبا الفوارس شيئًا من الشعر فأنشد:

يا أيها الملك الذى راحاته ... قامت مقام الغيث فى أزمانه
يا قبلة القصاد يا تاج العلى ... يا بدر هذا العصر فى كيوانه
يا مخجلاً ضوء السماء بجوده ... يا منقذ المحزون من أحزانه
المظهر الإنصاف فى أيامه ... بخصاله والعدل فى بلدانه
يا ساكنين ديار عبس إننى ... لاقيت من كسرى ومن إحسانه
ما ليس يوصف أو يقدر أو يفى ... أوصافهُ أحد بوصف لسانه
ملك حوى رتب المعالى كلها ... بسمو مجد حلَّ فى إيوانه
مولى به شرف الزمان وأهلهُ ... والدهر نالَ الفخر من تيجانه
فغدوت فى ربع خصيب عندهُ ... متنزهًا فيه وفى بستانه
ونظرت بركتهُ تفيض وماؤها ... يحكى مواهبهُ وجود بنانه
فى مربع جمع الربيع بربعه ... فى كل فنّ لاح فى أفنانه
وطيوره من كل نوع أنشدت ... جهراً بأنَّ الدهر طوع عنانه
ملكٌ إذا ما جسال فى يوم اللقا ... وقف العدوّ محيراً فى شانه
والنصر من جلسائه دون الورى ... والسعد والإقبال من أعوانه
فلأشكرنَّ صنيعهُ بين الورى ... وأطاعن الفرسان فى ميدانه

فطرب كسرى ومن حضر، وقال لهُ المنذر: حياك الله يا شاعر العرب، ما أرق شعرك وأعذب، ولما أراد عنترة الرحيل قال لهُ كسرى: لو أعطيك يا عنترة على كل بيت ألف دينار لكان قليلاً فى مقابلة أبياتك الحسان، لأن العطايا تنفد ومدحك يبقى على طول الزمان، فاطلب ما شئت واطلق فى ميدان الطلب لسانك، فشكره عنترة، وقال: لقد كفيت أيها الملك بجودك عن طلب المال، ولكن إذا تلطف الملك وتكرم انطلق لسان العبد وتكلم، فإنى قد بلغت بإحسانك هذه الرتب العليا ولا أعود إلاَّ بما أفتخر به على الغير وأزين به ابنة عمى عبلة بنت مالك فأمر له كسرى بتاج من الذهب وجواهر كريمة وحلى.

* * *

عنترة والأسد عند كسرى

لما أسر كسرى عنترة فى أحد حروبه وأشار عليه الوزير بقتله أمر أن يؤتى له بأسد كان قد ذخره لمثل هذه الحال، وبينما كان عنترة ينتظر ذاك الأسد وإذا به قد أقبل رافلاً بالزناجير ومن حوله رجال كثيرة تقوده إليه، فهجم عليه عنترة مشهرًا الحسام وأنشد يقول:

يا ليث احـذر أن تكـون جزوعًا ... واحمل علىَّ فلست منك مروعـا
أقبـل إلىَّ فإنـنى لا أنثنى ... عن قتل مثلك أو أكون هلوعا
إن كنت تزعم أن وجهـك عابسٌ ... فأنا العبوس ولا أكون شنيعا
اليوم تضحى فى الفلات مجندلاً ... وتخرُّ فى هذا المكـان سريعًا

وما زال يحاولهُ حتى استمكن منهُ فأهوى عليه بسيفه فخر صريعًا، فعجب كسرى من شجاعته وقبلهُ بين عينيه ثم أطلقهُ وأمر لهُ بأحسن الهدايا وأجمل التحف.

* * *

عنترة بن شداد وسمية

مر عنترة يومًا بأرض بنى غيلان وقد اشتد الحرُّ وسطعت الشمس فعكف على شجرة يستظلُّ بها مع أخيه شيبوب، فما لبث أن سمع أنين حزن وقائلاً يقول: «قاتلك الله يا مالك ما أقساك» ثم سمع صوتًا أقوى ورجلاً يترنم بهذه الأبيات:

يا أمّ داوى كبـدى ... بالماء من حر الظمـا
وابكـى عـلىَّ إنـنى ... قد ملَّ جسمى السقما
قد كان دمعى منجدى ... واليوم قـد صـار دمـا
وزاد جسمى سقمـا ... وذاب قلبـى ألمـا
حمامـة الوادى اهتفى ... وساعـدى المتيمـا
نوحى علىّ واصنعـى ... على بـلائى مـأتمـا

بحرمة العهدُ الذى حفظت فيه الذمما
إن سألتك عبلة قولى لها قدَ عدما
واليوم يقضى نحبهُ شوقًا إلى ذاك الحمى
يا عبلَ ما خلى الهوى من رسم جسمى علما
والجسم منى قد وهى والصبر منى انصرما
لما رأيت عبلة مسيبةً سبى الأما
لكن بهذا قد قضى فى حكمه ربُّ السما

فلما سمع عنترة ذلك ظن نفسهُ فى حلم ومال إلى الصوت ميل الآسف الحنون فرأى بجانب نهر أمة سوداء بين يديها غلام شاب تارةً يغمض عينيه وطورًا يشير بيديه والأمة قاعدة إلى جانبه تبكى وتقبل وجههُ حزنًا وحنانًا، فدنا منها عنترة، وقال: يا أمة الله ما بال هذا الفتى خامد الأنفاس لا يسمع مقالاً ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، فقالت لهُ الأمة: والله يا وجه العرب ما كانت هذه حالهُ وإنما الأيام تأتى بالعجب فقال: ومن يكون هذا الفتى، قالت: عنترة واسم أمه زبيبة، وبينما كان يومًا يرعى الجمال إذ رأى فتاة حسناء تدعى عبلة فوقع حبهُ فى قلبها، فهجم على أحيائها يومًا الأمير يقظان ابن جياش بن مزاحم فقتل أهلها وأخذها سبية له وهو مقيم فى ذاك السوارى وغادر هذا المسكين هائمًا حزينًا لا يعرف هداه ولا يرى له ناصرًا على أعداه، فعجب عنترة من ذى المشابهة وتوارد الأسماء والحوادث ووعدها خيراً ومضى نحو ذاك الفارس وإذا به يشرب الخمر والجارية لديه تبكى وتنتحب وقد همت أن تلقى نفسها حزنًا إلى الأرض وهى تصيح بأعلى صوتها: «لن تنال أيها النذل منى منالاً، فوالله لا خنت ابن عمى عنترة ولو قطعتنى إربًا».

فلما سمع عنترة كلامها خيل له أن عبلة تناديه من فمها فهجم عليه هجمة الأسد وقتلهُ شرَّ قتلة وأنقذ الفتاة من شره وردها إلى حبيبها.

* * *

مارية أم الحارث وحسان بن ثابت

قال حسان بن ثابت الشاعر يمدح مارية وآل جفنة بهذه الأبيات:

لله درُّ عصـــابة نادمتهـم ... يومًا بجلـق فى الزمـان الأولِ
أولاد جفنـة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مـارية المعز المخـولِ
يسقـون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيـق السلسلِ
بيض الوجـوه كريمـة أحسابهم ... شم الأنـوف من الطـراز الأولِ
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبلِ

* * *

عفو عمرو بن الحارث

حارب عمرو بن الحارث قومًا من العرب وسبى نساءهم وأولادهم وكان من جملة من سبى أخت عمرو بن الصعق العدوانى فلم يشعر إلاَّ وأخوها قد وقف به وأنشد:

يا أيها الملك المهيب أما ترى ... صبحًا وليـلاً كيـف يختلفـانِ
هل تستطيع الشمس أن يؤتى بها ... ليلاً وهل لك بالصبـاح يدانِ
فاعلم وأيقن أن ملكـك زائلٌ ... وكمـا تدين تدان عقد رهـان

فوقعت هذه الأبيات فى قلبه، وقال له: أمنك الله على من لك عندى وأمن كل الناس على من وقع لهم من السبايا وجنح عن عزمهِ.

* * *

عروة بن الورد

ويلقب أيضًا بعروة الصعاليك لأنه كان يعول الضعيف والمريض فى دياره ويقضى حوائجهم ومن قوله فى المعروف:

ومكروب كشفت العـار عنهُ ... بضربة صـارمٍ لما دعـانى
وقلـت لهُ أتاك أتاك فانهـض ... شجاع حين ينهض غير وانى

فما أنا عند هيجا كل يوم بمسلوب الفؤاد ولا جبانى
يصافينا الكريم إذا التقينا ويبغضنى اللئيم إذا رآنى

* * *

زهير وبنو عامر

لما بلغ زهيراً خبرُ قتل ابنه شاس فى أحياء بنى عامر زحف بعسكر جرار لمحاربتهم وأخذ الثأر، فلما بلغوا ديارهم تقدم إلى الملك زهير ملاعب الأسنة عشم بن مالك أمير بنى عامر، وقال: أيها الملك فيم أتيت أرضنا فإن كنت زائرًا فعلى الرحب والسعة، وإن جئت متصيداً فأهلاً وسهلاً بك، فقال زهير: لا والله ما جئتكم زائراً ولا متصيداً إنما جئت لأخذ الثأر ممن قتلوا ولدى شاسًا، قال: وما الذى غير ما بيننا من الوداد، قال: قتل شاس ولدى فى أحيائكم، قال غشم: ومن قتل ولدك وأحرق عليه كبدك؟ ومن أعلمك بذلك الخبر؟ قال: عبده سالم بن مسهر، قال: وهل تريد أن تأخذ البرىء بالسقيم وتصدق فينا قول عبد زنيم؟ ولو فرضنا أنه صادق فكم يجوز أرضنا ليلاً من سلال وسارق وربما أدرك ولدك برجل غريب ففعل به ما فعل ولم يخش محذوراً، فإن شئت أن تعاملنا بالجفاء بعد الوداد والصفاء فمعاذ الله أن نغير ما بيننا وبينك من المحبة والوفاء فكن بنا متلطفًا وارحم الأرامل والضعفاء، فلما سمع الملك زهير قوله رق لهم وعفا عنهم خوفًا من عاقبة البغى وعاد على أعقابه.

* * *

الجود والأجواد

قيل لأعرابى: ما القرى، فقال: نار يعلو شرفها وخيمة يوطأ كنفها، وقيل: تلقى النزيل بالوجه الجميل، وقال الله تعالى فى مدح قوم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]، وقال النبى ﷺ: «إذا نزل الضيف بقومٍ نزل برزقه وإذا ارتحل عنهم ارتحل بذنوبهم» وقيل لبعضهم: ما الكرم؟

فقال: طعام مبذول ونائل موصول ووفاءٌ لا يحول، وقال الإمام على: لأن أخبز صاعًا أو صاعين فأدعو إليه نفرًا من إخوانى أحب إلىَّ من أن أعتق رقبة، وقال الواثق يومًا لأحمد بن أبى داود تضجرًا لكثرة حوائجه: قد خلت بيوت المال لطلباتك للائذين بك والمتوسلين إليك، فقال: يا أمير المؤمنين هى نتائج شكرها متصل بك وذخائر أجرها مكتوب لك وما لى من ذلك إلا أن أخلد المدح فيك، فقال أحسنت وشفعهُ، وقيل للأحنف: ما السخاء؟ قال: الاحتيال للمعروف، قيل: فما اللؤم؟ قال: الاستقصاء على الملهوف، وقيل: السخى من كان بمالهِ متبرعًا وعن مال غيره متورعًا، وقيل للصوفى من الجواد من الناس، فقال الذى يؤدى ما افترض عليه، وقيل للحسن: من السخى؟ فقال: من لو كانت الدنيا له فأنفقها لرأى عليه بعد ذلك حقوقًا، وقال بعضهم: الناس أربعة: جوادٌ وهو الذى يعطى حظ دنياه وآخرته، بخيل وهو الذى لا يعطى واحدًا منها، مسرف وهو الذى جعل ماله لدنياه، مقتصد وهو الذى أعطى كلاً بقدره. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة ١٩٧]. وقال النبى ﷺ: «أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف فى الآخرة»، وقال: السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدلية فى الدنيا فمن أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى الجنة والبخل شجرة من أشجار النار فمن أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى النار، وقال ابن عباس: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأ، وقيل لأحد الحكماء، ما الذى يشبه فعل الله من أفعال العباد؟ فقال: الإحسان إلى الناس، وقال النبى ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخى فإن الله تعالى آخذ بيده» وقال: سادة الدنيا فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء، وقيل: من بذل الدراهم أحبهُ الناس طوعًا أو كرهًا، وقيل لحكيم: هل شىء خير من الدراهم؟ قال: معطيها، وقيل للحسن: كيف نزلت بالأطراف؟ فقال: هى منازل الأشراف يتناولون من أرادوا بالقدرة عليه ويتناولهم من أرادهم بالحاجة إليهم، وقيل لبعض من اتخذ دعوة أسرفت، فقال: ليس فى الشرف إسراف، وقال المزنى: إذا أتاك ضيف فلا تدعهُ ينتظر ما ليس عندك وتمنعهُ ما هو عندك بل

قدم إليه وأحضر، وقيل: الضيف إلى القليل العاجل أحوج منهُ إلى الكثير الآجل، وقال النبى ﷺ لبعض نسائه: «آكلى ضيفك فالضيف يستحى أن يأكل وحده»، وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفهُ»، ونزل ضيف بجعفر بن أبى طالب متنكرًا، فعاونه غلمانه عند نزوله، فلما أراد الارتحال لم يعنهُ غلامٌ، فشكاهم فقال: إن غلماننا لا يعينون على الارتحال عنا، وقال ابن عون: ما رأيت أسخى بالطعام من الحسن وابن سيرين لأن الحسن يقول: الطعام أهون من أن يحلف عليه، وابن سيرين يقول: أقسمت لتأكلن، وقال ابن عباس: ما من داخل إلا ولهُ حيرة فأبدؤه بالسلام، وما من مدعوّ إلى طعام إلا وله حشمة فأبدؤه بالملاطفة، وقيل: محادثة الإخوان تزيد لذة الضيف الآكل، وقال النبى ﷺ: «شركم من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده»، قيل لأعرابى: ممن أنت، قال: ممن لا يزجر وفودهم ولا يسر وقودهم، وسئل آخر. فقال: ممن يهتدى برأيه الصحب ويستدلّ بناره الركب، وقال أحدهم يصف قومًا كرامًا: لهم نار وإربة الزناد قديمة الولاد تضىء لها البلاد ويحيا بها العباد، قال الأصمعى لبعض الأعراب: ما تعرفون من مكارم الأخلاق، قال: نضىء نارنا للضيف ولا تنبح كلابنا ونقريه وجوهنا قبل طعامنا، قال النبى ﷺ: «من كان عليه يد فليكافئ عليها فإن لم يفعل فليثنين عليه فإن لم يفعل فقد كفر النعمة»، وقال البحترى:

يزيد تفضلاً وأزيد شكرًا وذلك دأبهُ أبدًا ودأبى

ولبعض الأدباء:

لأملأن لسان الشكر فيك فقد أطلقتهُ بفعال ملؤها كرم

بعث المنصور إلى شيخ من بطانة هشام فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله فأقبل الشيخ يقول: فعل رحمهُ الله وقال يوم كذا رحمهُ الله، فقال المنصور: قم لعنك الله أتطأ بساطى وتترحم على عدوى، فقال الشيخ: إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها ممر الأيام، فقال المنصور: ارجع إلى حديثك فإنى أشهد أنك غرس شريف وابن حرة كريم وأجازه.

لما قتل مسلمة بن عبد الملك يزيد بن المهلب أمر بأن يحضر الشعراء ليقولوا فى ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه ما خلا رجلاً من بنى دارم فإنه قال: لا أذم رجلاً لا أملك ربعًا ولا مالاً ولا أثاثًا إلاَّ منه ولو قطعت إربًا إربًا ولقد رثيتهُ بأحسن ما يرثى به رجل وأنشد الأبيات. فجزاه سليمان خيرًا، وقال: إذا اصطنع فليصطنع مثل هذا.

وقال أحدهم يمدح كريمًا أجازه:

فإن يك أربى عفو شكرك عن يدى
أناس فقد أربى نداه على شكرى

وقد أجاد أبو نواس فى هذا المعنى:

أنت امرؤٌ جللتنى نعمًا أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تسدين إلىَّ عارفةً حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقد أبدع البحترى فى قوله:

أخجلتنى بندى يديك وسودت ما بيننا تلك اليد البيضاءُ
وقطعتنى بالجود حتى إننى متخوف أن لا يكون لقاء

وقال:

إيهًا أبا الفضل شكرى منك فى نصب
أقصر فما لى فى جدواك من إربِ
لا أقبل الدهر نيلاً لا يقوم لهُ
شكرى ولو كان مسديه إلىّ أبى

وقال الشمردلى يمدح كريمًا:

أياديك لا تخفى مواقع صوبها
فتعفو إذا ما ضيع الحمد والشكرُ
وهل تستطيع الأرض من بعدما انطوت
على ريها إنكار ما فعل القطرُ

وقال آخر:

هب الروض لا يثنى على الغيث نشره
أمنظره تخفى مآثره الحسنا

ولغيره:

لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا نعمًا يكون لها الثناء تبيعا

وللسموءل:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليلُ
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليلُ

ولآخر:

فما بلغت أيدى المنيلين بسطة
من الطول إلاَّ بسطة الشكر أطولُ
ولا رجحت فى الوزن يومًا صنيعة
على المرء إلاَّ منة الشكر أثقلُ

لما جعل ابن الزيات فى التنور قال له خادمه: يا سيدى قد صرت إلى ما صرت وليس لك حامد، قال: وما نفع البرامكة، قال: ذكرك لهم الساعة، فقال: صدقت، وقال أشجع يمدح قومًا كرامًا:

مدحناهم فلم ندرك بمدحٍ مآثرهم ولم نترك مقالا

وقال ابن الحجاج الشاعر:

هو البحر إن حدثت عن معجزاته
ضعفت عن استغراق تلك العجائب
وإن رام شعرى أن يحيط بوصفه
أحاط بشعرى العجز من كل جانب

وقال: نصيب الأصغر يمدح الفضل بن يحيى:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراءَ

وقيل لذى الرمة: لم خصصت ملالاً بمدحك؟ قال: لأنه وطأ مضجعى وأكرم مجلسى فاستولى بذلك على شكرى ومدحى.

وقال أحدهم يمدح كريمًا:

إن جدَّ معنى فمن جدواه معتصرٌ أو جلّ لفظٌ فمن عليـاه مهتصرُ

وأنشد المتنبى:

وأصبح شعرى منهمـا فى مكـانه وفى عنق الحسناءِ يستحسن العقدُ

وذكر أعرابى رجلاً كريمًا فقال: كأن الألسن والقلوب ربطت له فما تعقد إلا على وده ولا تنطق إلا بحمده، وغاية المدح أن يمدحك من لا معرفة لهُ بك ضرورة إلى مدحك وأن يسلفك حسن الثناء من عسى أن لا يصل منك إلى نفع.

وقال ابن أبى طاهر:

وما أنا فى مدحى عليًا بواحـدٍ ولكنه فى الفضل والجود واحدُ

ولابن الرومى:

إذا امتدحوا لم ينحلوا مجد غيرهم وهل ينحل الأطواق ورق الحمـائمِ

وله أيضًا:

أنت زنت القلائـد الزهر قدمًا ضعف ما زانت القلائد جيدك

وأنشد عمارة بن عقيل يمدح خالدًا:

أرى الناس طرًا حامدين لخالد
وما كلهم أفضت إليه صنائعـهُ

ولن يترك الأقوام أن يحمدوا الفتى
إذا كرمـت أعراقـه وطبائعـــهُ

قال بعض الأكابر لأبى هفان: ما لك لا تمدحنى؟ فقال:

لسان الشكر تنطقهُ العطايا ويخرس عند منقطع النوال

وسئل رجل عن بعض الأكابر، فقال: أما ترى ازدحام الناس على بابه وكثرة قصادهِ وطلابهِ. وقال الشاعر:

يزدحـم الناس على بابهِ والمنهل العذب كثير الزحام

وقال أعرابى: قصدت فلانًا فوجدت بابه كعرصة المحشر يهوى إليه كل معشر فداره مجمع العفاة ومربع المكرمات حاضرة الجود والحسب وهب.

دخل رجل على أبان بن الوليد فقال: أصلح الله الأمير أحفيت إليك الركاب وقطعت الهضاب وأخلقت الثياب، فقال أبان: ما دعاك إلى ذلك أقرابة أم جوار أم عشرة متقدمة أم صلة سابقة فقال: لم يكن من ذلك شىء ولكنى سمعت الناس ينشدون بيتًا قلتهُ فيك فعلمت فيك خيراً وهو:

وما شيم لى برق وإن كان نازحًا ... فيخلف إذ بعض البوارق خلبُ

فأمر له بجمال ومال.

وأنشد بشار بن برد يمدح كريمًا:

دعانى إلى عمر جوده ... وقول العشيرة بحر خضم

ولولا الذى خبروا لم يكن ... لأحمد ريحانة قبل شم

وأنشد الموسوى:

دعانى إليك العزُّ حتى أجبتهُ ... ومن طلبتهُ جمة الماءِ أوردا

ولآخر:

بلغت مرادى واطمأنت بى النوى ... وقال لى الورَّاد أعشبت فانزل

وقال أبو النواس:

تقول التى من بيتها خف مركبى ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ

أما دون مصر للفتى متطلبٌ ... بلى إن أسباب الغنى لكثيرُ

ذرينى أكثر حاسديك برحلةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيب أميرُ

فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدورُ

فما جازهُ جودٌ ولا حلَّ دونهُ ... ولكن يسيرُ الجود حيث يسيرُ

وقال آخر يمدح أميراً:

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمدًا ... فظهورهنَّ على الرجال حرامُ

قربنا من خير من وطئَ الثرى ... فلها علينا حرمة وزمامُ

وقال المتنبى يمدح كافوراً ويثنى على كرمهِ:

قواصد كافورٍ توارك غيرهِ ... ومن ورد البحر استقلَّ السواقيا

فجاءت به إنسان عين زمانه ... وخلت بياضًا خلفها وإماقيا

وأنشد ابن الرومى:

أريد مكانًا من كريم يصوننى وإلا فلى رزق بكل مكانِ

* * *

حصلت فى عهد هشام مجاعة عظيمة، فدخل إليه وجوه الناس من الأحياء وفى جملتهم درواس بن حبيب العجلى وعليه جبة صوف مشتمل عليها بشملة قد اشتمل بها الصماء، فنظر هشام إلى صاحبه نظرة لائم فى دخول درواس إليه وقال: أيدخل علىّ كل من أراد الدخول، وكان درواس مفوهًا فعلم أنه عناه، فقال درواس: يا أمير المؤمنين ما أخل لك دخولى عليك، ولقد شرفنى ورفع قدرى تمكنى من مجلسك، وقد رأيت الناس دخلوا لأمر أحجموا عنهُ فإن أذنت فى الكلام تكلمت، فقال هشام: لله درك تكلم فما رأى صاحب القوم غيرك، فقال: يا أمير المؤمنين تتابعت علينا سنون ثلاث أما الأولى فأذابت الشحم وأما الثانية فأكلت اللحم وأما الثالثة فانتقت المخ ومصت العظم ولله فى أيديكم أموال فإن تكن لله فاعطفوا بها على عباد الله وإن تكن لهم فعلامَ تحجبونها عنهم؟! وإن تكن لكم فتصدقوا بها عليهم فإن الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين، فقال هشام: لله أنت ما تركت واحدة من ثلاث، وأمر بمائة ألف دينار فقسمت فى الناس، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين ألكل رجل من المسلمين مثلها، قال لا ولا يقوم بذلك بيت المال، فقال: لا حاجة لى فيما يبعث على ذمك، فلما عاد إلى داره أمر بذلك فبعث إليه فقسم تسعين ألف درهم فى تسعة من أحياء العرب وأبقى عشرة آلاف درهم فبلغ ذلك هشامًا فقال: لله دره إن صنيعة مثلهِ تبعث على الاصطناع.

وقال ابن الرومى مفتخرًا:

زِنى الناس حتى تعرفى عند وزنهم إذا رفع الميزان كيف أميلُ

وأنشد جرير الشاعر:

إذا سرَّكم أن تمسحوا وجه سابقٍ جوادٍ فمدوا وابسطوا من عنانيا

ألا لا تخافا نبوتى فى ملمة وخافا المنايا أن تفوتكما بيا

قال أعرابى: أشد الأشياء مؤونة إخفاء الفاقة وأشد من ذلك السؤال إلى من يجبرها، وقال خالد بن صفوان: أشد من فوت الحاجة ظلبها إلى غير أهلها وقال الأعشى:

حسب الكريم مذلة ونقيصة أن لا يزال إلى لئيم يرغبُ

وقال آخر:

وإنى لأرثى للكريم إذا غدا على حاجة عند اللئيم يطالبه

وقيل: السؤال وإن قل ثمرة لكل نوال وإن جل، وقال الشاعر:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضًا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال قرنتهُ رجح السؤال وخف كل نوال

وكان يجرى على أبى العيناء رزق فتأخر عنهُ فتقاضاه مرارًا ثم تركهُ وقال: لا حاجة لى فيه فهو رقٌّ لا رزقٌ، وبلاءٌ لا عطاء، ومحنة لا منحة.

وقال الشاعر:

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً فابذلهُ للمتكرم المفضال

قال النبى ﷺ: «اعتمد لحوائجك الصباح الوجوه فإن حسن الصورة أول نعمة تلقاك من الرجل»، كلم أعرابى خالد بن عبد الله وتلجلج فى كلامه فقال: لا تلمنى على الاختلاط فإن معى ذل الحاجة ومعك عز الاستغناء، وقال سعيد بن العاص: موطنان لا أعتذر من العى فيهما إذا سألت حاجةً لنفسى وإذا كلمت جاهلاً، وسار الفضيل بن الربيع إلى أبى عباد فى نكبة يسأله حاجة فارتج عليه، فقال له: يا أبا العباس بهذا اللسان خدمت خليفتين، فقال: إنَّا تعودنا أن نُسأل لا أن نسأل وأنشد ابن الرومى:

نذكر بالرقاع إذا نسينا ونذكر حين تمطلنا الكرامُ

فإن الأم لم ترضع صبيًا مع الإشفاق لو سكت الغلامُ

قال الإمام عمر بن الخطاب: إذا سألتمونا حاجةً فعاودونا فيها فإنما سميت القلوب لتقلبها، وأنشد بشار بن برد:

هززتك لا أنى وجدتك ناسيًا لأمرى ولا أنى أردت التقاضيا

ولكن رأيت السيف من بعد سله إلى الهزّ محتاجًا وإن كان ماضيا

تواطأ أبو دلامة مع أم دلامة على أن يأتى هو المهدى فينعيها وتأتى على الخيزران فتنعيه، فأتى أبو دلامة المهدى وهو يبكى وأنشد:

وكنا كزوج من قطافى مفازةٍ
لدى خفض عيشٍ مورقٍ ناضرٍ رغدِ
فأفردنا ريب الزمان بطرقه
ولم نرَ شيئًا قط أوحش من فردِ

فقال له: ما بالك؟ فقال: ماتت أم دلامة وإنى أحتاج إلى تجهيزها فدفع له مالاً، وأتت أم دلامة الخيزران وقالت: إن أبا دلامة مضى لسبيله، فاغتمت وأمرت لها بمال وأعطتها ثيابًا وطيبًا، ولما دخل المهدى على الخيزران قالت له: يا أمير المؤمنين إن أبا دلامة مضى لسبيله أبقى الله أمير المؤمنين وأم دلامة كانت عندى الساعة فأعطيتها التجهيز لزوجها، فقال المهدى: إن أم دلامة مضت لسبيلها وكان عندى أبو دلامة الساعة وأعطيته نفقة تجهيزها، فعجبا ولم يصدقا حتى ذهبا إليهما فنظر المهدى فإذا بهما طريحين فى أرض الدار فقال: لا بد أن أم دلامة ماتت قبل زوجها، قالت: بل أبو دلامة يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذلك وقد رأيته الساعة، فلما اشتد الخصام قال المهدى: أقسم بشرفى إن لمن أطلعنى على الحقيقة خمسة آلاف درهم، فنهض أبو دلامة، وقال: أم دلامة ماتت قبلى يا أمير المؤمنين، فضحك المهدى ودفع إليه المال.

كان لأبى الأسود جبة خز قد تقطعت، فقال له معاوية: ما تمل لبسها، فقال: رب مملول لا يستطاع فراقه، فأمر له بمال.

قصد أبو الحسن الوراق سيف الدولة فى جملة الشعراء فناولهُ درجًا يوهم أنه شعر له، فنشره سيف الدولة، فقال: ليس فيهِ شيء مكتوب. فقال سيدى يكتب فيه لعبده، فضحك وأمر له بمال.

قسم عبد الله بن عبيد مالا بين بنيه، فقال له عبد صغير: أعطنى أولاً، فقال له ولم، قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فبدأ بالمال وأنا مالك، فأعطاه وقدمهُ.

وسأل أعرابى عبد الملك، فقال لهُ: سل الله، فقال: سألته فأحالنى عليك، فضحك منهُ وأعطاه.

وقال الشاعر:

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم
وإذا رآك مسلمًا عرف الذى حملتهُ وكأنهُ ملزومُ

قال شريح: من سأل حاجة فقد عرض نفسهُ على الرق فإن قضاها المسئول استعبده بها وإن رده رجع حراً وهما ذليلان هذا بذل اللؤم وهذا بذل السؤال، وقال سعيد بن العاص: ما رددت أحدًا عن حاجة إلاَّ تبينت العز فى قفاه والذل فى وجهى، وأدخل ابن السماك رجلاً إلى الفضل بن الربيع فقال: إن هذا يذل لك ماء وجهه فأكرم وجهك عن رده، وأنشد أبو تمام:

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى إذا أفنيته عوضُ

وقيل: العجب لمن يشترى العبيد بالأموال ولا يشترى الأحرار بالنوال والأفضال، وقيل: ليس للأحرار ثمن إلا الإكرام فأكرمهم تملكهم.

وسئل خالد بن يزيد ما الجود، قال أن تعطى من سألك، فقال ابنه: يا أبتِ هذا هو كد المسألة إنما الجود أن تعطى من سألك ومن لم يسألك.

وقال محمد بن أبى عمران:

أجرنى من ذلِّ السؤال وأعفنى فكل عزيز فى السؤال ذليلُ

وقيل: أهنأ المعروف عاجلهُ، وقال أحدهم: إذا أوليتنى نعمة فعجلها فإن النفس مولعة بحب العاجل، وقال مروان بن أبى حفصة:

فما نحن نخشى أن يخيب دعاؤنا لديك ولكن أهنأ الجود عاجلهُ

أقام أحدهم بباب ملك مدةً فلم يحظ منهُ بشىء فكتب أربعة أسطر فى رقعة، الأول: «الأمل والضرورة أقدمانى عليك»، الثانى: «ليس على العدم صبر»، الثالث: «الرجوع بلا فائدة شماتة الأعداء». والرابع: «إما (نعم) مثمرة وإما (لا) ميئسة»، فكتب تحت كل سطر يعطى لكل منها أربعة آلاف درهم.

وأنشد المتنبى:

أبا المسك هل فى الكأس فضل أنا له
فإنى أغنى منـــذ حين وتشربُ
وهبت على مقـدار كفى زمـاننا
ونفسى على مقـــدار كفيـك تطلبُ
إذا لم تنـط بى ضيعـة أو ولايةً
فجـودك يكسونى وشغلك يسلبُ

ومدح المتنبى كريمًا قد نأى عنهُ فقال:

فإن فـارقتنى أمطـاره فأكثر غدرانها قد نضب

وقال ابن الحجاج فى كريم سألهُ:

نفسى تقى نفسـك مـا تشتكى لمثل هـــذا اليـوم أعددتكا
فأجرِ عـلى العـادة فى برّ من يجرى على العادة فى شكركا

وفد أحد الشعراء على أمير من العرب فلم يلتفت إليه فأنشد:

ماذا أقول إذا انصرفت وقيل لى ماذا أفدت من الجـواد المفضلِ
فاختر لنفسـك مـا أقـول فإننى لا بد مخبرهم وإن لم أُسألِ

فضحك الأمير وإجازه.

قال أعرابى لمعاوية أقمنى على البصرة، قال: ما أريد بعاملها بدلاً، قال: أقطعنى البحرين، قال ما لى إلى ذلك سبيل، قال: فمر لى بألف درهم، فأمر لهُ، فقيل لهُ قد بالغت أولاً ثم انحططت، فقال: لولا طلبى كثيرًا ما أعطانى قليلاً.

قال خالد بن عبد الله لأعرابى قال فيه:

أخالد بين الأجر والحمد حاجتى فأيهمـــا تأتى وأنـت جـوادُ

سل ما بدا لك، فقال: مائة ألف درهم، قال: أسرفت، قال: ألف درهم، فقال خالد لا أدرى أمن إسرافك أتعجب أم من حطك، فقال: إنى سألتك على قدرك فلما أبيت سألت على قدرى، فقال: إذًا والله لا تغلبنى على معروفى، ودفع إليه ما طلب.

يلام أبو الفضـــل فىْ جـــوده وهل يملك البحر أن لا يفيضا

كانت أخت حاتم سخية لا تبقى شيئًا، فحظر عليها إخوتها وحبسوها حتى ذاقت طعم الجوع والفقر، فظنوا أنها قد وجدتْ ألم الضيق والفقر فأطلقوها ودفعوا إليها صرَّة، فأتتها سائلة، فقالت: دونك الصرة فقد نابنى من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبدًا.

مدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه، فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد شكرًا، فقال هشام: هذا أحسن من المدح فوصلهُ وأكرمه.

قال بعض الأعراب قدم علينا الحكم بن المخزومى ولا مال لنا فأغنانا عن آخرنا، فقلت له: كيف؟ فقال: علمنا مكارم الأخلاق فعاد أغنياؤنا على فقرائنا فصرنا كلنا أجوادًا.

قال مسلم بن قتيبة: إنى لأعجز عن مكافأة من رآنى لحاجته أهلاً، فقال أبو العطاء: أيها الأمير فاجعل فضلك ابتداء حتى ترفع عن نفسك ثقل المكافأة.

سئل بعض الأدباء عن جعفر بن يحيى بعدما قتل. فقال: تركنى مقطوع الآمال زاهدًا بعده فى طلب الأموال.

قال ابن خارجة: لا أرد سائلا فإنما هو كريم أسد خلتهُ أو لئيم أشترى عرضى منهُ.

كان العباس بن محمد يجرى على رجل شيئًا فغضب عليه، وكان ابنهُ كتب إطلاقات رفعت إليه فترك اسم المغضوب عليه، فقال: فأين ذكر رزق فلان، فقال: إنك قد كنت غضبت عليه، فقال: يا بنى غضبى لا يسقط هبتى إن أباك لا يغضب فى النوال.

قال الحجاج يومًا قلَّ السائلون؟ فقال رجل: أصلح الله الأمير إنك أكثرت خير البيوت فاستغنى الناس بما يصل إليهم عن الترحال، فسر الحجاج، وقال: بارك الله فيك وأحسن إليه.

مدح رجل كريمًا فقال: كيسهُ محلول ومالهُ مبذول يطعمك نفسهُ إن أكلتها

ويسقيك روحهُ إن شربتها.

قيل للحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله: ليس فى السرف خير، فقال: ليس فى الخير سرف.

لما دخل الفضل بن يحيى الرقة قال لوكلائه، أحصوا منزل من يغنيهِ ألف درهم، فأحصوا ثلاثمائة منزل، فوجه إليهم ثلاثمائة ألف درهم، ثم وضع له الطعام فقال ما أكلت طعامًا أهنأ من اليوم وقد علمت أنى أغنيت ثلاثمائة ألف بيت.

دخل هشام بن عروة على المنصور فشكا إليه دينًا، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من أعطى عطية وهو طيب النفس بورك للمعطى والمعطى منها»، أفنفسك طيبة بها؟ قال: نعم.

فرق على بن موسى الرضى مالهُ بخراسان كلهُ فى يوم عرفة، فقال له الفضل بن سهل ما هذا المغرم، فقال بل هو المغنم، لا تعدنَّ مغرمًا ما ابتعت به أجرًا وكرمًا.

قال الحسن بن على لرجل سأله شيئًا فلم يمكنه: لو أمكننى لكان الحظ فيه لنا دونك فإنا حرمنا شكرك فلا تحرمنا سعة عذرك.

وإليك بعض أبيات فى مدح الجود والأجواد:

لو أن عين زهير أبصرت حسنًا ... وكيف يصنع فى أمواله الكرمُ
إذًا لقال زهيرٌ حين يبصره ... هذا جواد على العلات لا هرم

* * *

وإن جاد قبلك قوم مضوا ... فإنك فى الكرم الأول

* * *

لو أن ما فيه من جودٍ يورعهُ ... على الخلائق عادوا كلهم سمحًا
كأن فيض يديهِ قبل مسألة ... باب السماءِ إذا ما بالحيا انفتحا

* * *

مطرت أنامل راحتيه فوائدًا ... هانت علينا بعدها الأمطار

قال عبد الله بن جعفر: لا تستحى من إعطاء القليل فإن المنع أقل منه.

مدح مطيع بن إياس معن بن زائدة، فقال له: إن شئت أجزناك وإن شئت مدحناك، فاستحيا مطيع أن يختار الثواب وكره العدول إلى المدح فقال

ثناءُ من أمير خيـر كسبٍ لصاحب مغنم وأخى ثراءِ
ولكن الزمـان أطـال دائى وما مثل الدراهم من دواءِ

فضحك معن وأجازهُ.

قال بعض الخلفاء لسائل احتكم، فقال: يد أمير المؤمنين أبسط من لسانى بالمسألة، فأجزل لهُ العطية.

دخل أشعرى على الرشيد وسأله، فقال: احتكم، فقال: أشعرى يحتكم بعد أبى موسى، فضحك منهُ وأجازهُ.

دخل أعرابى على بائع تمر بالكوفة فقال:

رأيتك فى النوم أطعمتنى قواصر من تمرك البـارحهْ
فقلـت لصبياننـا أبشروا برؤْيا رأيت لكم صالحـهْ
قواصـر تأتيكـم بكـرة وإلاَّ فتأتيكم رائحـــهْ
فقل لى نعـم إنهـا حلوةٌ ودع عنـك لا إنها مالحـهْ

فأعطاه قوصرة تمر، وقال: أحب أن تتركنى من هذه الرؤيا فإن رؤيا يوسف صدقت بعد أربعين سنة.

قال رجل لابن عباس أتيتك فى حاجة صغيرة، فقال: هاتها فالحر لا يصغر عن كبير أخيه ولا يكبر عن صغيره.

قيل لبعضهم: أى الناس أحب إليك، قال: من أولانى معروفًا، قيل: فإن لم يكن، قال: من أوليتهُ معروفًا، قال رجل لهشام: إن الله تعالى جعل العطاءَ محبة والمنع مبغضة فأعنى على حبك، قال النبى ﷺ: «من اتصلت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه فمن لم يحتمل تلك المؤن عرّض لزوال النعم» قال خالد بن عبد الله: حوائج الناس إليكم نعم من الله عليكم فلا تملوا النعم فتتحول نقمًا، وأفضل الأموال ما أكسب أجرًا وأورث ذكرًا، قيل لحاتم كيف تجد الجود فى قلبك، فقال: إنى لأجده كما يجده الناس

ولكن أحمل نفسى على خطط الكرام، وقيل من جاد بماله فقد جاد بنفسه وإن لم يجد بها فقد جاد بما لا قوام له إلاّ بها.

وصف رجل خالد بن عبد الله القسرى بالشجاعة، فقال بعض من حضره: إن خالدًا لم يلق حربًا قط، فقال: الصبر على السخاء أشد من الصبر فى الهجاء.

قال ابن أبى خالد، لا تعدّن نفسك شجاعًا حتى تكون جوادًا فإنك إن لم تقو على أن تقاتل نفسك على البخل لم تقدر على عدوّك بالقتل، وقيل: السخى شجاع والبخيل شجاع الوجه، وقال أبو تمام:

وإذا رأيت أبا يزيد فى الوغا ويداه تبدى غارة وتعيدا
أيقنت أن من السماح شجاعة تدمى وإن من الشجاعة جودا

قالت امرأة لابنها، إذا رأيت المال مقبلا فأنفق فإنه يحتمل وإذا رأيته مدبراً فأنفق فإن ذهابه فيما تريد أجدى من ذهابه فيما لا تريد.

قال وهب بن منبه: اتخذوا عند المساكين سيراً فإن لهم دولة يوم القيامة، كان محمد بن كعب أصاب مالا فقيل لهّ ادخره لولدك من بعدك، فقال: لا والله أدخره لنفسى وأدخر ربى لولدى.

وقال بشار بن برد فى الجود:

أخالد إن الجود يبقى لأهله جمالاً ولا تبقى الكنوزُ على الكدِّ

وقال ابن مقبل:

وأيسر مفقود وأهون هالك على الحى من لا يبلغ الحى نائلهُ

قال أحدهم: أفضل الناس عيشًا من عاشت الناس فى فضله.

قال المتنبى فيمن لا يكفه قول العاذل عن إنفاق المال:

وما ثناك كلام الناس عن كرمٍ ومن يسد طريق العارض الهطلِ

لما مات حاتم الطائى تشبه به أخوه فقالت له أمه: لا تتعبن فيما لا تنالهُ، فقال: وما يمنعنى وقد كان شقيقى وأخى من أمى وأبى، فقالت: إنى لما ولدته كنت كلما أرضعته أبى أن يرضع حتى آتيه بمن يشاركه فيرضع الثدى الآخر وكنتُ إذا أرضعتك ودخل صبى بكيت حتى يخرج، قال الشاعر:

إذا القطر لم يغزر علينا سماؤُه بأرض وثقنا من سمائك بالغزر

* * *

قوم إذا مطرت سماءُ نوالهم ذم الأنام سحائب الأمطار

* * *

يجود فتستحيى السحاب إذا رأت نداهُ وتخطيهِ الغيوث المواطر

* * *

إذا انبسطت بالمكرمات أكفهم رأيت الحيا من صيبهن قد استحيا

* * *

أنا الرجل الذى كلتا يديهِ يمين فى صروف النائبات

* * *

فتى شقيت أمواله بسماحةٍ كما شقيت قيس بأرماح تغلب

* * *

كأنَّ لهم دينًا عليه وما لهم سوى جود كفيه عليه حقوق

* * *

ألبستنى حلل الغنى فلبستها وجعلت آمالى لهنَّ ذيولا

* * *

بسطت لهم وجهًا طليقًا إلى الندى وشرُّ الوجوه ما يعبسهُ البخلُ

* * *

وتأخذه عند المكارم هزَّة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

* * *

وصنيعة لك قد كتمت جزيلها فأبى تضوعها الذى لا يكتم

* * *

وريق عودهم أبدًا رطيب إذا ما اغبر عيدان اللئام

* * *

الجود يعلم أنى منذ عاهدنى ما خفتهُ وقت ميسورى ومعسورى

* * *

هـانت الدنيـا عليـهِ فهى نهبى فى يديه
يصبح الجود ويمشى عاكفًا فى راحتيـهِ

* * *

وإن خليليك السماحة والندى مقيمـان بالمعروف حيث تقيم

* * *

وإن وجود الجود فى كل بلدة إذا لم يكن يحيا بها لغريب

* * *

أعطـاك قبل سـؤالِه فكفاك مكروه السؤال

* * *

سألتك إغنائى عن الناس كلهم فأغنيتنى عنهم وعنك جميعًا

* * *

وأحسن وجه فى الورى وجه محسن
وأيمن كـف فى الورى كـف منعم

* * *

لم يدعنى وفى يمينى فضل لندى غيره ولا فى شمالى

* * *

أرى الناس خلاًّن الجواد ولا أرى بخيـلاً لهُ فى العـالمين خليـلُ

* * *

لا فرق فى ناطق بالشرك عندهم وناطـق فى جـواب السائلين بلا

* * *

لعمرى لنعم الغيث غيث أصابنا ببغـــداد مـن أرض الجزيرة وإبله
ونعم الفتى والبيـد بينى وبينهُ بعشـرين ألفًا حبتنـا رسـائله
لعمرى مـا النائى البعيـــد بنازحٍ إذا قربت ألطـــافهُ ونـوائـله
ومـا ضرنا أن السمـاك مملـق بعيـد إذا جـادت علينـا هـواطله

* * *

يقـول أناس لو جمعـت دراهـمًا وكيـف لم أخلـق لجمـع الدراهم

أبى الله إلا أن تكونَ دراهمى مدى الدهر نهبى بين عافٍ وغانم

* * *

ولو نزل الأضياف ليلة لا قرى لأطعمتهم لحمى وأتقيتهم دمى

* * *

وحكمنى حتى لو أنى سألتــه شبابى وقد ولى به الشيب رده

* * *

ما زال يهذى بالمكارم والعلى حتى ظننا أنه محمــومُ

* * *

فتى كملت أخلاقه غير أنهُ جواد فلا يبقى من المال باقيا

* * *

يعد ما أنفق من مالهِ غنمًا وما أوفره غرما

* * *

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجــود ومـا لديك قليلُ

* * *

العرض ليس يصونهُ مال إذا ما المال عند حقوقهِ لم يبذل

* * *

كريم رأى الإقلال عارًا فلم يزل أخا طلب للمال حتى تمولا
فلما أفاد المال عــاد بفضله على كل من يرجو جداه مؤملا

* * *

الحلم والحلماء

قيل الحلم تجرع الغيظ ودعامة العقل، وقيل ليس الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر انتصر، ولكن الحليم من ظلم فحلم فإذا قدر غفر، وقالت الفلاسفة: الحلم فضيلة النفس يكسبها الطمأنينة ولا يحركها الغضب، وقيل الحلم والأناة توءَمانِ ينتجهما علو الهمة، وقيل لعمر بن الأهتم: من أشجع الناس، فقال: من ردَّ جهله حلمهُ، وقيل ليس التاج الذى يفتحر به العلماء

والملوك فضة أو ذهبًا لكنه الوقار المكلل بجواهر الحلم.

دفع أزدشير بن بابك ثلاثة كتب إلى رجل يقوم على رأسه، وقال له: إذا رأيتنى قد غضبت فادفع إلىَّ الأول، وكان فيه «أمسك فلست بإله وإنما أنت جسد يوشك أن يأكل بعضهُ بعضًا»، فإن لم أندم، فادفع إلىَّ الثانى، وكان فيه «ارحم عباد الله يرحمك الله»، وإلا فالثالث وكان فيه: «احمل عباد الله على حقه».

ومرَّ النبى ﷺ بقوم يربعون حجرًا فقال: «إن أشدكم من ملك نفسهُ عند الغضب»، وقيل الكظم يدفع محذور الندم كالماء يطفئ حر الضرم. وقال أحدهم: كظم يتردد فى حلقى أحب إلىَّ من نقص أجده فى خلقى، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، قيل لحكيم: أى الأحمال أثقل؟ فقال: الغضب، وقيل لأبى عباد: أى أبعد من الرشاد السكران أم الغضبان؟ فقال: الغضبان لا يعذره أحد فى ذنب يجترمهُ وما أكثر ما يغدر السكران، وقيل من غضب من غير ذنب رضى من غير عذر، وقيل من فاتهُ الدين والمروءة فرأس ماله الغضب، وقال حكيم: إياك وعزة الغضب، فإنها تصير بك إلى ذل الاعتذار، وقيل أسرع الناس رضًى أسرعهم غضبًا كالحطب أسرعهُ خمودًا أسرعه وقودًا، وشتم حليم سفيهًا وهو ساكت، فقال: إياك أعنى، فقال: وعنك أغضى، وقيل من كرم أصلهُ لان قلبهُ، وقيل من أمارات الكرم الرحمة، ومن أمارات اللؤم القسوة، وقال الله تعالى فى العفو: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢]، وقال أيضًا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقال الأحنف: إياكم وحمية الأوغاد، قيل: وما حميتهم؟ قال يرون العفو مغرمًا والبخل مغنمًا، وقيل: من شكر الموهوب العفو عن الذنوب والاحتمال قبر العيوب، وقيل: لذة العفو أطيب من لذة التشفى لأن لذة العفو يتبعها حمد العاقبة ولذة التشفى يتبعها غم الندامة، وقيل للإسكندر أى شىء أنت به أسرُّ مما ملكت، قال مكافأة من أحسن إلىَّ بأكثر من إحسانه وعفوى عمن أساء بعد قدرتى عليه، وقال المأمون: الحلم

يحسن بالملوك إلا فى ثلاثة قادح فى ملك ومتعرض لحرمة ومذيع لسرّ، وقال السفاح: الحلم يحسن إلاّ ما أوضع الدين وأوهن السلطان، وقال الإمام عمر: لئن يخطئ الإمام فى العفو خير له من أن يخطئ فى العقوبة، وقال الإمام على: إذا قدرت على العدو فاجعل العفو شكر قدرتك، ظفر الإسكندر ببعض الملوك فقال له: ما أصنع بك، قال ما يجمل بالكرام أن يصنعوه إذا ظفروا، فخلى سبيلهُ ورده إلى مملكته، ولما ظفر أنوشروان ببزرجمهر، قال: الحمد لله الذى أظفرنى بك، فقال: كافئ من أعطاك ما تحب بما يحب.

وقال معاوية: العقوبة ألأم حالات ذى القدرة، وقال حكيم: من شفى غيظهُ لم يجب شكره، وقيل التشفى طرف من الجزع فمن رضى أن لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق وحجاب ضعيف فلينصف، وقيل عفو العزيز أعز له وعفو الذليل أذل لهُ، وقال بعض الملوك، إنما تملك الأجساد دون النيات ونحكم بالعدل لا بالهوى ونفحص عن الأعمال لا عن السرائر، وقال النبى ﷺ: «ألا أخبركم بشركم من أكل وحده وضرب عبده ومنع فدهُ، ألا أخبركم بشر من ذلك، من لا يقبل معذرة ولا يقبل عثرة»، وقيل: لا عيب مع إقرار ولا ذنب مع استعفاء، سمع حكيم رجلاً يقول: ذنب لإصرار أولى بالاغتفار، فقال: صدق والله ليس فضل من عفا عن السهو القليل كمن عفا عن العمد الجليل، وقال ابن المعتز: تجاوز عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقًا حتى اتخذ من رجائك رفيقًا، وقال الفضل بن مروان لرجل عاتبهُ: بلغنى أنك تبغضنى، فلم ينكر الرجل وقال: أنت كما قال الشاعر:

فإنك كالدنيا نذم صروفها ونوسعها ذمًا ونحن عبيدها

أتى المنصور برجل أذنب فقال: إن الله يأمر بالعدل والإحسان فإن أخذت غيرى بالعدل فخذ فىَّ الإحسان؛ فعفا عنهُ.

قال الشعبى لابن بسرة وقد كلمهُ فى قوم حبسهم: إن حبستهم بالباطل لحق يخرجهم وإن حبستهم بحق فالعفو يكفهم، فأمر بإطلاقهم.

قال رجل لمعن: ما على المذنب أكثر من الرجوع فهل على من لم يذنب أكثر من الاعتذار.

وقال الرشيد لمذنب: لأضربنك حتى تقر بالذنب، فقال: هذا خلاف ما أمر الله تعالى به لأنه أمر أن يضرب الناس حتى يقروا بالإيمان وأنت تضربنى حتى أقر بالكفر، فخجل الرشيد وعفا عنهُ.

انقطع عبد الملك عن أصحابه فانتهى إلى أعرابى فقال: أتعرف عبد الملك؟ قال: نعم جائر بائر، قال: ويحك أنا عبد الملك، قال: لا حياك الله ولا بيَّاك ولا قربك، أكلت مال الله وضيعت حرمتهُ، قال: ويحك أنا أضرُّ وأنفع، قال: لا رزقنى الله نفعك ولا دفع عنى ضرّك، فلما وصلت خيلهُ علم صدقهُ، فقال: يا أمير المؤمنين اكتم ما جرى فالمجالس بالأمانة.

عثر جعفر بن سليمان برجل سرق درة فباعها فلما بصر بالرجل استحيا، فقال له: ألم تكن طلبت هذه الدرة منى فوهبتها لك، فقال: نعم فخلى سبيلهُ.

كان ركن الدولة يومًا فى الدار بحيث لا يُرى، فدخل فرَّاش فرأى طاسًا من ذهب ولم يكن بصر به أحد فتناولهُ وخرج، فرآه ركن الدولة ولم يعلم به، فلما استقصى عليه الخدم قال دعوه فإن من أخذه لم يأخذه على أن يرده ورائيه لا يريد أن يذكره، فبينما كان الفراش يومًا يصب ماء على يده وعليه ثياب فاخرة قال له ركن الدولة: هذه الثياب من ذلك الطاس، وكان الفراش صبورًا، فقال: نعم أيها الأمير، وغير ذلك من أثر النعم، فعفا عنهُ.

قال غلام هاشمى أراد عمه أن يجازيه لسهو منه: يا عم إنى قد أسأت وليس معى عقلى فلا تسئ ومعك عقلك.

اعتذر رجل إلى المنتصر، فقال: أترانى أتجاوز بك حكم الله؟ حيث يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:٥].

قال هاشمى للمأمون: من حصل له مثل التى ولبس ثوب حرمتى وأسلف مثل مودتى وغفر له فوق زلتى، فقال: صدقت وعفا عنهُ.

غضب عبد الملك على رجل فلما أتى به قال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال: لا سلام الله عليك، فقال: ما هكذا أمر الله، إنما قال تعالى: ﴿وإذَا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فَحيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء:٨٦]، وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٤] فعفا عنه.

وكان عمر رضى الله عنهُ يعس ليلةً فسمع غناء رجل من بيت فتسور عليه فرآه مع امرأة يشربان الخمر، فقال: يا عدو الله أرأيت أن يسترك الله وأنت على معصية، فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل، إن كنت عصيت الله فى واحدة فقد عصيت الله فى ثلاث فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢] وقد تجسست، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] وقد تسوَّرت علىَّ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] وقد دخلت بغير سلام، فقال عمر: أسأت فهل تعفو، فقال: نعم وعلى أن لا تعود.

أتى الحجاج برجل من أصحاب ابن الأشعث فقال له: أفيك خير أن عفوت عنك، فقال: لا، قال: ولم. قال: لأنى كنت خاملاً فرفعتنى وألحقتنى بالناس فخرجت مع ابن الأشعث لا لدين ولا لدنيا ومعى الحماقة التى لا تفارقنى أبدًا ولا أفلح معها سرمدًا، فضحك منه وخلى سبيلهُ.

أتى معن بن زائدة بأسرى فأمر بضرب أعناقهم، فقام غلام منهم فقال: أنشدك الله أيها الأمير أن لا تقتلنا ونحن عطاش، فقال: اسقوهم، فلما شربوا قال: ناشدتك الله أن قتلت ضيفانك، قال: أحسنت وخلى سبيلهم.

همَّ الأزارقة بقتل رجل، فقال: أمهلونى لأركع، فنزع ثوبهُ واتزر ولبى وأظهر الإحرام، فخلوا سبيله لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢].

ولما أتى عمر رضى الله عنهُ بالهرمزان أراد قتلهُ، فاستسقى ماءً، فأتوه بقدح فأمسكه بيده فاضطرب، وقال: لا تقتلنى حتى أشرب هذا الماء، فقال: نعم، فألقى القدح من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: أولم تؤمننى، وقلت: لا أقتلك حتى تشرب هذا الماء، فقال عمر: قاتلهُ الله أخذ أمانًا ولم نشعر به.

غضب رجل على عبده، فقال: أسألك بالله إن علمت أنى لأطوع لك منك لله فاعف عنى عفا الله عنك، فعفا عنهُ.

وقال رجل لأمير غضب عليه، أسألك بالذى أنت أذل بين يديه غدًا منى بين يديك إلاَّ ما عفوت عنى، فعفا عنهُ.

جنى غلام للحسن بن على فأمر بعقابه، فقال: يا مولاى إن الله تعالى قد مدح قومًا فكن منهم، فإنه يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال: خلوا سبيله، قال: وقد قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال قد عفوت عنك، قال وقد قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال أنت حر لوجه الله تعالى ولك من المال كذا.

استعفى رجل من مصعب بن الزبير فعفا عنهُ، فقال: اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض، فأعطاه مائة ألف، فقال الرجل: إنى قد جعلت نصفها لابن قيس الرقيات لقوله:

إنما مصعب شهاب من الـــــــله تجلت عن وجههِ الظلماءُ

فقال لهُ مصعب: هذا لك وعلينا أن نعطيه ذلك.

أُتى عبد الله بن زياد بخارجى فأمر بقتله، فقال: إن رأيت أن تؤخرنى إلى غد فأمر بتأخيره، فقال:

عسى فرج يأتى به الله إنهُ لهُ كل يومٍ فى خليقته أمرُ

فعفا عنهُ.

غضب المأمون على علىٍّ بن الجهم، فقال: لآخذنَّ مالك ولأقتلنك اقتلوه، فقال أحمد بن أبى داود، إذا قتلتهُ فمن أين تأخذ المال يا أمير المؤمنين، قال: من ورثته، فقال: حينئذ تأخذ مال الورثة وأسير المؤمنين يأبى ذلك، فقال: يؤخر حتى يستصفى مالهُ، وانفض المجلس وسكن غضبه وتوصل إلى خلاصه.

غضب الرشيد على رجل فقال له جعفر: غضبت لله فأطع الله فى الرجوع بالوقوف إلى حال التبين كما غضبت لهُ.

قيل: ما عفا عن الذنب من قرَّع بهِ، والعفو مع العذل أشد من الضرب

على ذى العقل، فرب قولٍ أنفذ من صول وعفو أشد من انتقام، وقال بعض الأدباء، من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم، وقال أبو الدرداء لرجل أسمعهُ كلامًا: يا هذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعًا فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عزَّ وجل فيه، وشتم رجل الشعبى، فقال: إن كنت كما قلت فغفر الله لى وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك، وقال النبى ﷺ: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرًا للقدرة عليه» وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر، وقال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلى بصورته والإغضاء عن الجاهل خيرٌ من مشاكلته، وقيل للإسكندر: إن فلانًا وفلانًا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما، فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى تنقصى وثلبى، فكان هذا تفضلاً منه وتألفًا.

وقال الأحنف: ما عادانى أحد قط إلاَّ أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال إن كان أعلى منى عرضت لهُ قدرهُ، وإن كان دونى رفعت قدرى عنهُ، وإن كان نظيرًا بى تفضلت عليه.

وقيل فى منثور الحكم: الحلم حجاب الآفات، وأكرم الشيم أرعاها للذمم، ومن ظهر غضبه قل كيدهُ، وقال بعض الأدباء: غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله، وقال بعض الحكماء: إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابًا وأوجعتهُ عقابًا، وقالت الحكماء: ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن: لا يعرف الجواد إلاَّ فى العسرة والشجاع إلاَّ فى الحرب والحليم إلا فى الغضب، وقال بعض الحكماء: العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقال عمرو بن العاص: أكرموا سفهاءكم فإنهم يسومونكم العار والشنار، قال سلمان لعلى بن أبى طالب: ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل، قال: لا تغضب، وقال بعض البلغاء: من ردَّ غضبهُ هدَّ من أغضبهُ، وقال رجل لبعض الحكماء: عظنى، قال: لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعى شره بحزمه فيردها ليحظى بأجل الخير وليسعد بحميد العاقبة،

شكا رجل إلى النبى ﷺ القسوة، فقال: «اطلع فى القبور واعتبر بالنشور»، وكان بعض الملوك إذا غضب ألقى عندهُ مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبهُ، وقال عمر بن الخطاب: من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير، وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه: «إن كلمة ملك تسفك دمًا وأخرى منك تحقن دمًا وإن نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس فى غضبك من قولك أن تخطئ ومن لونك أن تتغير ومن جسدك أن يخف فإن الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلمًا»، وقال بعض الحكماء: الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم، وقال النبى ﷺ: «ينادى مناد يوم القيامة من لهُ أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس، ثم تلا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]»، وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الأشعث: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو، وقال النبى ﷺ: «الخير فى ثلاث خصال فمن كنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل وإذا غضب لم يخرجهُ غضبهُ من حق وإذا قدر عفا»، وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلامًا فقال عمر أردت أن يستفزنى الشيطان لعزَّة السلطان فأنال منك اليوم ما تنالهُ منى غدًا انصرف رحمك الله، قال النبى ﷺ: «ما ازداد أحد بعفو إلا عزًا فاعفوا يعزكم الله» وقال بعض البلغاء: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شرط الكرم إزالة النعم، وقال المأمون لإبراهيم بن المهدى: إنى شاورت فى أمرك فأشاروا علىَّ بقتلك إلا أنى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك، فقال: يا أمير المؤمنين إن المشير أشير بما جرت به العادة فى السياسة إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلاَّ من حيث ما عودته من العفو فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فلا نظير لك وأنشد:

البرّ بى منك وطأ العذر عندك لى ... فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفًا مننت بهِ ... إنى لفى اللؤْم أحظى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به ... فلا عدمناك من عافٍ ومنتقم

المروءة وأربابها

قال النبى ﷺ: «من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوتهُ» وقال بعض البلغاء: من شروط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف فى الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويًا على ضعيف ولا يؤثر دنيًا على شريف ولا يسرّ ما يعقبه الوزر والإثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم، وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل، وقال النبى ﷺ: «إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره دنيها وسفسافها» وقال عمر بن الخطاب: لا تصغرن هممكم فإنى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم، وقيل الهمة راية الجد، وقال بعض البلغاء: علوا الهمم بذر النعم، وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمرًا ظفر به أعظمهما مروءة، وقال بعض الأدباء: من طلب التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيمًا، وقال النبى ﷺ: «ما هلك امرؤٌ عرف قدره» وقيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالاً، فقال: من بعدت همتهُ واتسعت أمنيتهُ وقصرت آلتهُ وقلت مقدرته، وقال بعض الحكماء: تجنبوا المنى فإنها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم، وقيل: الحظوظ كالسحاب الذى يمسك عن منابت الأشجار إلى مغايص البحار وينزل إلى حيث يصادف من خبيث وطيب فإن صادف أرضًا طيبة نفع وإن صادف أرضًا خبيثة ضرّ كذلك الحظ إن صادف نفسًا شريفة نفع وكان نعمة عامة وإن صادف نفسًا دنية ضرّ وكان نقمة طامة، دعا موسى بن عمران على قوم بالعذاب فأوحى إليه قد ملكت أسفلها على أعلاها، فقال: يا رب كنت أحب لهم عذابًا عاجلاً؛ فأوحى الله تعالى إليه: أوليس هذا كل العذاب العاجل الأليم، وقيل: شرف النفس مع الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لأن من علت همتهُ مع دناءة نفسه كان متعديًا إلى طلب ما لا يستحقه

ومتخطيًا إلى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له والفضل بينهما ظاهر وإن كان لكليهما من الذم نصيب.

وقيل لبعض الحكماء: ما أصعب شيء على الإنسان، قال: أن يعرف نفسهُ ويكتم الأسرار فإذا اجتمع الأمران واقترنا بشرف النفس وعلو الهمة كان الفضل بهما ظاهراً وافراً ومشاق الحمد مسهلة وشروط المروءة بينهما متينة.

وتقسم شروط المروءة إلى قسمين، شروط المروءة فى النفس وشروطها فى الغير، فأما شروطها فى النفس ففى ثلاثة أمور وهى العفة والنزاهة والصيانة، فأما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثانى العفة عن المآثم وفى ذلك يقول الشاعر:

الموت خيرٌ من ركوب العار والعار خيرٌ من دخول النـار
والله من هـذا وهـذا جارى

والداعى إلى ذلك شيئان إرسال الطرف وإتباع الشهوة، قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إياكم والنظرة بعد النظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة، وقال الإمام على: العيون مصايد الشيطان، وقال حكيم: من أرسل طرفهُ استدعى حتفهُ.

قيل: شرُّ الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئًا، وقيل: من يزرع خيراً يحصد زرعهُ غبطة، وقال بعض الحكماء: إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال، وجاء فى الحديث: «المؤمن غرٌّ كريم والفاجر خبٌّ لئيم».

وأما العفة عن المآثم فنوعان أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم، والثانى زجر النفس عن الإسرار بخيانة، فأما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول إن استمر إلى فتنة أو جلاء فأما الفتنة فى الأغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف إلاَّ وهو بها مصروع كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣] وجاء فى الحديث: «الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعامًا لها»، وقال جعفر بن محمد، الفتنة حصاد للظالمين، وقال بعض الحكماء: صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً وأسوأ

شيء عملاً، والظالم كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئًا حتى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فيكون الظالم مهلكًا ثم هالكًا، وجاء فى الحديث: «اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أن تعيشوا فى أكنافهم فترون آثار الله تعالى فى الظالمين فإن له فيهم غيراً وتتصورن عواقب ظلمهم فإن فيها مزدجراً»، ورد فى الحديث: «من أصبح ولم يف ظلم أحد غفر الله له ما اجترم»، وورد عن النبى ﷺ أنه خاطب عليًا قائلاً: «يا على اتق دعوة المظلوم فإنه إنما يسأل الله حقهُ وإن الله لا يمنع ذا حق حقهُ»، وورد فى منثور الحكم: ويل للظالم من يوم المظالم، وقال بعض الحكماء: من جار حكمهُ أهلكهُ ظلمهُ، والاستسرار بالخيانة بذاء مهينة ولو لم يكن من ذم الخيانة إلاَّ ما يجدهُ الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرًا ولو تصور عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده فى نفسه من العز ويقابل عليه من الإعظام، وورد فى الحديث: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»، وقيل الأمانة مؤداة إلى البرّ، وقال بعض الحكماء: من التمس أربعًا بأربعٍ التمس ما لا يكون، من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون، ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون، ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون، والداعى إلى الخيانة شيئان المهانة وقلة الأمانة، فإذا حسمها عن نفسه بما ذكر ظهرت مروءته.

وأما النزاهة فنوعان: أحدهما: النزاهة عن المطامع الدنية، والثانى: النزاهة عن مواقف الريبة.

فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤْم وهما أدفع شيء للمروءة، والباعث على ذلك شيئان، الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتى وإن كان كثيراً لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيراً لقلة أنفته، وقال أحدهم: يا رسول الله أوصنى، قال: عليك باليأس مما فى أيدى الناس وإياك والطمع فإنهُ فقر حاضر وإذا صليت صلاة فصلّ صلاة مودع وإياك وما يعتذر منهُ،

وقال النبى ﷺ: «إن نفسًا لا تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم إبطاء الرزق على طلبه بالمعاصى فإن الله عز وجل لا يدرك ما عنده إلاَّ بطاعته».

وسئل محمد بن على عن المروءة فقال: أن لا تعمل فى السر عملاً تستحى منهُ فى العلانية، وقف رسول الله ﷺ ليلة مع زوجته صفية على باب مسجد يحادثها وكان معتكفاً فمرَّ به رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما: على رسلكما إنها صفية بنت حيى، فقالا: سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله، فقال: «رأيت أن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلبيكما سوءاً».

وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان: أحدهما: صيانة النفس كفايتها وتقدير مادتها والثانى صيانتها عن عمل المنن من الناس، وأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلأن المحتاج إلى الناس كل منهضم ذليل مشتغل وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمده ليقيم أود نفسه ويدفع ضرورة وقته. وقد قالت العرب فى أمثالها: كلب جوال خير من أسد رابض، وما يستمده نوعان لازم وندب، فأما اللازم فهو ما أقام بالكافية وأفضى إلى سد الخلة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط: أحدها استطابتهُ من الوجوه المباحة وتوقى المحظورة فإن المواد المحرمة مستخبثة الأصول ممحوقة المحصول إن صرفها فى بر لم يؤجر وإن صرفها فى مدح لم يشكر، وقد ورد فى الحديث: «لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فإن أنفق لم يقبل منهُ وإن أمسكه فهو زاده إلى النار»، وقال بعض الحكماء: شر المال ما لزمك إثم مكسبه وحرمك أجر إنفاقك ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال: انظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم، والثانى طلبهُ من أحسن جهاته التى لا يلحقهُ فيها غصن ولا يتدنس لهُ بها عرض فإن المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لإذلالها، وقال عبد الرحمن ابن عوف: يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى، وقال أبو شبر الضرير:

كفى حزنًا أنى أروح وأغتدى وما لى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبًا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وجاء فى الحديث: «اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه».

والثالث: أن يتأنى فى تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فإن يسير المال على حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعًا وأحسن موقفًا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى الأرض إذا روعى يسيره زكا وإن أهمل كثيره اضمحل، وقال محمد بن على رضى الله عنه: الكمال فى ثلاثة، العفة فى الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير فى المعيشة، وقيل لبعض الحكماء: فلان غنى، فقال: لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره فى ماله فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد أدَّى حق المروءة فى نفسه، وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة، وقيل: لا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب.

وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فإن الأمر فيه معتبر بحال طالبه فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبهُ ما كفاه فليس فى الزيادة إلاَّ شره ولا فى الفضول إلا نهم وكلاهما مذموم، وجاء فى الحديث خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى، وقال عبد الله بن مسعود: المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن، وقال بعض الحكماء: استر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام فإن كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر أن يكون رأسًا ومقدمًا وأن يرى فى النفوس معظمًا ومفخمًا فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلاً ونائلهُ فائضًا، وقيل لبعض العرب: ما المروءة فيكم؟ فقال: طعام مأكول ونائل مبذول وستر مقبول، وقال رجل لعمر بن الخطاب: خدمك بنوك؟ فقال: أغنانى الله عنهم، وقال الإمام على لابنه الحسن فى وصية لهُ: يا بنى إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًا

فإن التعبير من الله تعالى [illegible] وإن كان [illegible] كثيراً، وقال زياد لبعض الأعرابيين: ما المروءة فيكم؟ قال: اجتناب الريبة، فإنه لا ينبل سريب وإصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من احتاج أهله إلى غيره، وقيل: قدم لحاجتك بعض لجاجتك، وجاء فى الحديث: «من أعياه رزق الله تعالى حلالاً فليستدن على الله وعلى رسوله»، وقال الإمام على: من أراد البقاء ولا بقاء فليبادر الغداء وليخفف الرداء، قيل: وما فى خفة الرداء من البقاء؟ قال: قلة فى الدين فإن أعوذه ذلك استسماحًا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل، وقال بعض الحكماء: من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته، والذى يتماسك به الباقى من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وإن لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور:

أولاً: جهد المضطر، أحدهما: أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة، وليكن من التحمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم؟ قال: إذا زال معها التجمل.

ثانيًا: أن يقتصر فى السؤال على ما دعتهُ إليه الضرورة وقادته إليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته وقد قال بعض الحكماء: من ألف المسألة ألفهُ المنع.

ثالثًا: أن يعذر فى المنع ويشكر على الإجابة فإنهُ إن منع فعما لا يملك وإن أجيب فإلى ما لا يستحق.

رابعًا: أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلاً وكان أنجح عنده مأمولاً فإن ذوى المكانة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبى ﷺ: «الخير كثير وقليل فاعله، والمرجو للإجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث: إحداهن كرم الطبع فإن الكريم مساعد واللئيم معاند»، وقد قيل: المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة، والثانية: سلامة الصدر فإن الحقود ألب على نكبتك وحرب على نائبتك، وقد قيل: من أوعز صدره استدعيت شرهُ فإن رق لك

بكرم طبعه ورحمك بحسنى ظفره فأعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحمًا وقد قال الشاعر:

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه لهف راحمينا

والثالث: ظهور المكنة فإن من سأل ما لا يمكن فقد أحال وكان كمستنهض المسجون ومسعف المديون وكان بالرد خليقًا وبالحرمان حقيقًا، وقد قال الإمام على: من لا يعرف (لا) حتى يقال لهُ لا فهو أحمق، ووصى عبد الله بن الأهتم ابنهُ فقال: يا بنى لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلبها فى غير حينها ولا تطلب ما لست لهُ مستحقًا فإنك إن فعلت ذلك كنت حقيقًا بالحرمان.

أما شروط المروءة فى الغير فثلاثة: المؤازرة، والمباشرة، والإفضال. أما المؤازرة فنوعان: أحدهما الإسعاف بالجاه، والثانى: الإسعاف فى النوائب، فأما الإسعاف بالجاه فقد يكون من الأعلى قدرًا والأنفذ أمرًا، فقد قال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبقى لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك، وقال بعض البلغاء: من علامة الإقبال اصطناع الرجال، وقال بعض الأدباء: بذل الجاه أحد الحبائين، وجاء فى الحديث: «من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزوال»، وقيل لحكيم اليونان من أضيق الناس طريقًا وأملهم صديقًا؟ قال: من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه، وقال عدى بن حاتم:

كفى زاجرًا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وقال النبى ﷺ: «خير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله»، وقيل لبعض الحكماء: هل شىء خير من الذهب والفضيلة؟ قال: معطيهما.

والإسعاف فى النوائب نوعان واجب ومبدع فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم الأهل والإخوان والجيران، سئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال: صدق اللسان ومؤاساة الإخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان، وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق أن يبذل لك مالَهُ عند الحاجة

ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب، ورأى بعض الحكماء رجلين مصطحبين لا يفترقان، فسأل عنهما فقيل: هما صديقان، فقال: ما بال أحدهما فقير والآخر غنى، وقال الإمام على: ليس حسن الجوار كف الأذى بل الصبر على الأذى، وقال بعض الحكماء: من أجار جاره أعانه الله وأجاره، وقال بعض الشعراء:

وللجار حق فاحترز من إذائه وما خير جار لا يزال مؤاذيا

وقال بعض الشعراء:

حق على السيد المرجوّ نائله والمستجار به فى العرب والعجم
أن لا ينيل الأقاصى صوب راحته حتى يخص به الأدنى من الخدم
إن الفرات إذا جاشت غواربهُ روى السواحل ثم امتد فى الأمم

وأما التبرع فإن كان بفضل الكرم وفائض المروءة فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها، وقيل لبعض الحكماء أى شىء من أفعال الناس يشبهُ أفعال الإله! قال: الإحسان إلى الناس، قال بعض الأدباء: ثلاث خصال لا تجتمع فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال، وقال بعض العلماء: من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعًا ثم حصده فى غير أوانه، وقال أبو العتاهية:

وشر الأخلاء من لم يزل يعاتب طورًا وطورًا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ويبريك فى السر برى القلم

وقال بعض الحكماء: لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استطلاحه، وقال الأحنف: حق الصديق أن تحتمل لهُ ثلاثًا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة، وقال أبو نواس:

لم أؤاخذك إذ جنيت لأنى واثق منك بالإخاء الصحيح
فجميل العدوّ غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

وقال بعض الحكماء: لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين لهُ، وقال النبى ﷺ: «إياكم والمشارة فإنها تميت الغيرة وتحيى الغرَّة»، وقال بعض الحكماء: من فعل ما شاء لقى ما لم يشأ، وقال بعض الأدباء: من نالتهُ

إساءتك همهُ مساءتك، وقال بعض البلغاء: من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة، وقال بعض الحكماء: من كنت سببًا لبلائه وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه، قال لقمان لابنه: يا بنى كذَب منْ قال: إن الشرْ بالشر يطفأ فإن كان صادقًا فليوقد نارين ولينظر هل تطفأ إحداهما الأخرى وإنما يطفئ الخيرُ الشر كما يطفئ الماء النار، وقال البحترى:

وأقسم لا أجزيك بالشرِّ مثلهُ كفى بالذى جاريتنى لك جازيَا

وقال النبى ﷺ: «الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم ناقدوك وإن هربت منهم طلبوك وإن تركتهم لا يتركوك، قيل: وكيف المخرج يا رسول الله، قال: أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك»، وقال عبد الله بن العباس: العاقل الكريم صديق كل أحد إلا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد إلاَّ من نفعه، وقال: شرُّ أعدائك داؤك وفى البعد عنهم شفاؤك، وقال بعض الحكماء: شرف الكريم تغافله عن اللئيم، وقيل: دواءُ المودة كثرة التعاهد، وقال بعض الحكماء: رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة، وقال بزرجمهر: من تغير عليك فى مودته فدعهُ حيث كان قبل معرفته، وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تترك صديقك الأول فلا يطمئن إليك الثانى يا بنى اتخذ ألف صديق والألف قليل ولا تتخذ عدوًا واحدًا والواحد كثير، وقيل للمهلب بن أبى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة! قال: هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك أيهما شئت، وقال الشاعر:

إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلهـا أوشكتمـا أن تفرقا

وقيل فى منثور الحكم: لا تأمنن لملول وإن تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك على مله فيمل الجفاء كما ملَّ الإخاء، وإن كان لزلل لوحظت أسبابهُ، فقد حكى عن خالد بن صفوان أنه مرَّ به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر، فقيل له فى ذلك، فقال: نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذلك بثقته بنا، وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر إليه: لا يدعونك أمر تخلصت منه إلى الدخول فى أمر لعلك لا تخلص منهُ، وقال بعض البلغاء: من لم يقبل

التوبة عظمت خطيئتهُ ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته، وقال بعض الحكماء: الكريم أوسع المغفرة إذا ضاقت بالمذنب المعذرة، وقال بعض الشعراء:

العذر يلحقه التحريف والكذبُ وليس فى غير ما يرضيك لى إربُ
وقد أسأت فبالقمى التى سلفت إلا مننت بعفوٍ ما لهُ سببُ

وقال بعض الحكماء: شافع المذنب خضوعه إلى عذرِه، وقال بعض الشعراء:

أقبل معاذير من يأتيك معتذرًا إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وقد قيل: من سلَّ سيف البغى أغمده فى رأسه، وقال بعض الحكماء: من عاشر إخوانهُ بالمسامحة دامت له مودتهم، وقال النبى ﷺ: «أجملوا فى طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما كتب له منها» وقال: «ألا أدلكم على شىء يحبهُ الله تعالى، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: التغابن للضعيف».

وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى إزارًا بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم، فقال: ثمنهُ ستة دراهم ونصف، فقال: إنى اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهمًا.

حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبى داود، فقال: يا بنى إن الآداب ميراث الأشراف ولست أرى من عندك من سلفك إرثًا.

وإما الإفضال فنوعان: إفضال اصطناع، وإفضال استكفاف ودفاع، فأما إفضال الاصطناع فنوعان: أحدهما: ما أسداه جودًا فى شكور، والثانى: ما تألف به نبوة نفور، وقال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية، وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

يبقى الثناء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقوْل فعال

وإما إفضال الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعانى فضيلة فإن غفل عن استكفاف السفهاء، وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفًا للمثالب وحالهُ عرضة للنوائب، وقال النبى ﷺ: «ما وقى المرء به عرضهُ فهو صدقة»، وامتدح رجل الزهرى فأعطاه قميصه، قال رجل: أتعطى على كلام الشيطان؟ فقال: من ابتغى الخير اتقى الشر، وقال النبى ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك».

وقال الشاعر:

مولى المكارم يرعاها ويعمرها إن المكارم قد قلت مواليها

وقال أبو تمام:

قوم تراهم غيارى دون مجدهم حتى كأن المعالى عندهم حرمُ

وقال الراعى:

ومن يغمر بمكرمة فإنا سنناها لأيدى الفاعلينا

وإليك بعض أبيات فى وصف المروءة وأربابها:

عشق المكارم فهو معتمد لها والمكرمات قليلة العشاق

* * *

تلذ لهُ المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ لهُ الغرامُ

* * *

خدم العلا فخدمنهُ وهى التى لا تخدم الأقوام ما لم تخدم

* * *

ليس لهُ عيب سوى أنهُ لا تقع العين على مثلهِ

* * *

ما كنت فى غاية إلا سبقت ولا طال المدى بك إلا زدت إحسانا

* * *

وحزت بهم لا بل بنفس ابن حرَّة مآثر يحصى دون إحصائها الرملُ

* * *

الناس عنـد علىٍّ حين تذكره كالشوك يذكر بين الورد والآس

* * *

فما أحسن الدنيا وفى الدار خالدٌ وأقبحهـا لمـا تجهـز غـازيا

* * *

تنافس النـاس فى أيام دولتـهِ فمـا يبيعـون ساعـاتٍ بأعوام

* * *

إذا خفى القوم اللئام وجدتنى مقـارن شمس فى المجرّة أو بدر

* * *

ونفسك أكرمهـا فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

* * *

لبست من الحوادث كل ثوب سـوى ثـوب المذلة والهـوان

* * *

نهين النفـوس وهون النفـوس يوم الكريهـة أوفى لهـا

* * *

أهين لهم نفسى لأكرمها بهم ولن تكـرم النفس التى لا تهينهـا

* * *

قال معاوية لقرشى: ما المروءة؟ قال: إطعام الطعام وضرب الهام، وقيل المروءة أن تعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك، وجاء فى القرآن: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠]، وقيل: الحسب إحصاء المكارم والنسب إحصاء الآباء، وقال عمرو بن معدى كرب فى مدح قوم كرام: نعم القوم عند السيف المسلول والخير المسئول والطعام المأكول، وقف أعرابى على قبر عامر ابن الطفيل، فقال: لقد كنت سريعًا إذا وعدت بطيئًا إذا أوعدت وكانت هدايتك هداية النجم وجرأتك جرأة الشهم، وأخبر بعض الحكماء عن صاحب له، فقال: عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه فكان لا يشتهى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وقال رجل للمهدى: إنك ليوسفى العفو إسماعيلى

Obeikandl.com

الصدق شعبى الرفق سليمانى الملك داودى الفضل، وقال الشاعر:

أقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

* * *

الوعد والإنجاز والمطل

قال المهلب يوصى ابنهُ: يا بنى إياك والسرعة عند المسألة بنعم، فإن مدخلها سهل ومخرجها وعر واعلم أن (لا) وإن قبحت فربما أفرحت فإذا سئلت ما قدرت عليه فاطمع ولا توجب وإذا علمت معذرة فاعتذر فالإتيان بالعذر الجميل خير من المطلب الطويل.

قيل: من كثر وعده ووعيده اجترأ عليه عدوه وصديقهُ، وقال العتابى:

لحسن اعتذار المرء أوفى لعرضهِ من الذم من توكيد وعد يماطله

وقال المتنبى:

وفى اليمين على ما أنت واعده ما دل أنكَ فى الميعاد متهم

وعد أبو الصفر أبا العيناء بشىء، فتقاضاه، فقال: غدًا، فقال له: إن الدهر كله غد فهل عندك وعد يخلو من المعاريض.

وللخوارزمى فى مماطل:

إذا أضحى فموعـده مساءُ وأنا أمسى فموعده ضحاء

لابن الرومى:

طال المطال متى الوفاء فلا خلو د فحاجة أو رد يأسٍ ينفعُ

واعلم بأنى لا أسرُّ بحاجة إلا وفى عمرى بهـا متمتعُ

قيل من بذل لك حلو مقاله ومر نواله فهو عدوك المبين، وقيل لأبى العيناء كيف تركت فلانًا مع قومه؟ قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال الشاعر:

بذل الوعد للأخلاء سمحًا وأبى بعـد ذاك بذل العطـاء

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمـار كل الإباء

وقال الصاحب: سأنجز الوعد حتى ترى الطل وابلاً والهلال بدرًا كاملاً.

وقف بعضهم على أبى داود وأنشد:

حتى متى أنا موقوف على وجل ... بين السبيلين لا ورد ولا صـدرُ

فقضى حاجته.

وقيل: أورقت نعمك فليثمر كرمك، وقال جحظة البرمكى:

إذا كـانت صلاتـكم رقـاعًا ... تخطـط بالأنامـل والأكـفِّ

ولم تكن الرقـاع تجرُّ نفعًا ... فها خطى خذوه بألف ألفِ

وللمتنبى:

وإن تأخر عنى بعض موعده ... فمـا تأخر آمـالى ولا تهنُ

هـو الوفى ولكنى ذكرت له ... مـودة فهـو يبلوهـا ويمتحنُ

وقيل: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل.

سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده ثم لم ينجزه، فقال: أخلفت، فقال أبو عمرو: فمن أولى بالغم، قال الرجل: أنا، فقال: بل أنا لأنى وعدتك فأبت بفرح الوعد وأنا أبت بهم الإنجاز ثم عاق القدر عن بلوغ الإرادة فلقيتنى مدلاً ولقيتك محتشمًا.

قيل لبعضهم: كيف حالك مع فلان؟ فقال: لا أحصل منهُ إلاَّ على دق الصدر والجبهة، فقيل: كيف، قال إذا سألته دق صدره، وقال: (أفعل) وإذا عاودته وتقاضيته دق جبهتهُ، وقال: (لا قوة إلاَّ بالله نسيت).

* * *

الشفاعة والشفعاء

قال الله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء:٨٥]، وقال: «الشفاعة زكاة ونصرة اللسان فوق نصرة السنان»، وكان زياد يقول لأصحابه: اشفعوا لمن وراءكم فليس كل من أراد السلطان وصل إليه ولا كل من وصل استطاع أن يكلمه، وقال أبو تمام:

وإذا امرؤ أسدى إلىَّ صنيعةً ... من جاهـه فكأنهـا من مـاله

قيل لشعبة: أفنيت مالك وأخلقت جاهك فى حوائج الناس، فقال:

أصونهما للتراب، وقال أحدهم يصف شفيعًا:

ما تبالى وذا شفيعك لو كنـ ـت كعادٍ فى غيها وثمودِ
ذاك لو كان فى المعاد شفيعًا رضى الله عن جميع العبيد

وقال آخر:

ولو أن لى فى حاجة ألف شافعٍ لما كان فيهم مثل جودك شافعُ

وقال جحظة البرمكى:

وما لى حق واجب غير أننى إليكم بكم فى حاجتى أتوسلُ

* * *

«تمت نوادر الكرام»

* * *

obeikandl.com